

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٧

* (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) : من التوصيل؛ وهو تكثير الوصل وتكريره، أى : والينا وأتبعنا تبليغهم القرآن ، وقرأ الحسن « وصَلنَا » قال الرّاغب[1] : أى : أكثرنا لهم القول موصولًا بعضه ببعض .

(يَتَذَكَّرُونَ) : يتعظون ويتدبّرون .

(وَيَدْرَأُونَ) : أى يزدّون ويدفعون، وفى الحديث : « ادْرَأُوا الحُدُود بِالشُّبهات » أى : ادفعوها .

(بِالْحَسَنَةِ) : بالطاعة . (السَّيِّئَةَ) : المعصية .

(اللَّغْوَ) :كل ما ليس بحق، وقال مجاهد : الأذى والسبّ، وفى اللغة : اللّغو واللّغا

(١) قال الآلوسى : وأصل التوصيل : ضم قطع الحبل ووصل بعضها ببعض .

بوزن الفتى : السَّقَط وما لا يعتدُّ به من كلام وغيره[١] .

(أَعْرَضُوا عَنهُ) : انصرفوا عنه ولم يشتغلوا به .

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : قال القرطبي: أَمْنٌ مِنَّا لكم ، وعند الزمخشرى: كلمة توديع ومتاركة لا تحيَّة .

(لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) : لا نطلب صحبة الجاهلين ولا نريد مخالطتهم ولا جدالهم .

التفسير

٥١ ـ (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

قال القرطبي : الآية الكريمة ردٌّ على من قال : هلاَّ أُوتى محمد القرآن جملة واحدة مثل ما أُوتى موسى التوراة كذلك ؟

والمعنى : ولقد نزلنا القرآن ـ وعدًا ووعيدًا وقصصًا وعبرًا ونصائح ـ أنزلناه كذلك متواصلًا متتابعًا وفق ما تقتضيه الحكمة لعلهم يتذكرون ما يجب على كل عاقل من الخضوع للحق متى تبين ،والقرآن حق واضح يعرفه كل من نظر فيه وفتح قلبه وعقله ، فلو فعلوا لتذكروا وآمنوا .

ولقد ظل القرآن ينزل على الرسول ثلاثة عشر عامًا بمكة يشرح العقيدة ويُعَمِّق الإيمان فى نفس المؤمنين ، ويردّ على شبهات المشركين ، وعشر سنوات بالمدينة بعد أن انتقل الرسول إليها وكوّن هناك الدَّولة الإسلامية الفاضلة التى لم يسمع الزمان بمثلها ، وفى المدينة نزلت آيات الأَحكام مبينة الدستور الإسلامىّ للدولة الإسلامية الأُولى شارحًا أَحوال الأُمَّة فى السلم والحرب موضِّحًا الآداب الاجتماعية والسلوك السوىَّ الذى يجب أن ينهجه المسلمون ،ولقد كان القرآن ينزل أَحيانًا ردًّا على سؤال أَو على شُبَه أَهل الكتاب ،أَو تشريعًا فى حادثة فكان ينزل مناسبًا لمقتضى الحال ، كما أن النبى ﷺ أرسله الله أُميًّا ، لا يقرأ ولا يكتب ، فلكى ييسر الله له حفظه أنزله عليه مفرّقًا ولم ينزله جملة واحدة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا.وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا »[٢] .

---

(١) القاموس ج ٤ ص ٣٨٦

(٢) سورة الفرقان ، الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

وفى فضل القرآن وبيان قيمته ومنزلته يقول تعالى :

٥٢ ـ (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ) :

أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن بعض الذين أوتوا الكتاب من بنى إسرائيل قبل نزول القرآن ومجىء الرسول يؤمنون به وبما نزل عليه من قرآن كعبد الله بن سلام وغيره[١] .

قال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى وهم أربعون رجلًا ، قدموا المدينة ، منهم اثنان وثلاثون رجلًا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب ، وثمانية من الشام وكانوا أئمة النَّصارى ، وأنزل الله فيهم هذه الآية وما بعدها .

٥٣ ـ (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) :

هذه الآية استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم .

والمعنى : وإذا يُقْرَأُ القرآن على أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى قالوا : صدَّقنا بما فيه إنه الحق من ربنا لأن مثله لا يقوله بشر ، إنا كنا قبل نزوله أو قبل بعث محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مؤمنين بأنه سيُبْعَثُ وينزل عليه القرآن ، فإيمانهم به متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة ، فالمراد بالإسلام : الانقياد الظاهرى ، أى : إنا كنا ـ قبل نزول القرآن ـ مُنقادين لأحكام الله ـ تعالى ـ الناطق بها كتابه المنزل إلينا ، ومنها وجوب الإيمان به ، فنحن مؤمنون به قبل نزوله على الرسول ، ونحن عرفنا محمدًا وكتابه قبل نزوله ، فإسلامنا سابق على تلاوته .

٥٤ ـ (أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) :

أولئك الموصوفون بما سبق من النُّعُوت يُمْنحون جزاءهم مرتين: مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرَّة على إيمانهم بالقرآن ، وذلك بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بكتابهم ، ثم بالقرآن بعد نزوله ، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده ، أو على أذى من هجرهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين[٢] .

---

(١) الآلوسى .
(٢) الآلوسى .

قال القرطبي : ثبت فى صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النبي ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَعَبْدٌ مملُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ - عزَّ وجَلَّ - وحقَّ سَيِّده فَلَهُ أَجْرَان ، وَرَجُل كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فغذَّاها فأَحسن غذاءها ، ثم أَدَّبها فأَحسن أدبها ، ثم أعتقها وَتَزَوَّجها فله أجران » أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، والبخارى بلفظ مختلف .

قال العلماء : وكما أنهم يؤجرون على صبرهم ، فإنهم يؤجرون على دفعهم المعصية بالطاعة قال ﷺ لمعاذ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى ، فهو وصف لهم بمكارم الأخلاق ، أى: من قال لهم سُوءًا لا يَنُوه وقابلوه من الخلق الحسن بما يدفعه ، كالإعراض ولين الحديث .

وأثنى عليهم ربهم بأنهم ينفقون من أموالهم التى كسبوها من الحلال فى الطاعات وفى سبيل الخير ، ويبذلون ممَّا رزقهم الله من كسب طيب فى سبيل الله، ولتخفيف آلام المرضى والمحتاجين .

٥٥ - (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ) :

أى : يؤتيهم الله أجرهم مرتين على ما تقدم بيانه من الصفات الكريمة ، وعلى إعراضهم عن اللغو ، وإذا سمعوا ما قاله المشركون من سَقَطِ القول وبذيئه أعرضوا عنه ولم يشتغلوا به ، كما قال - تعالى - : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا »[١] . (وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أى قالوا متاركين لهم على سبيل التوديع لا على سبيل التحية : سلام عليكم وَأَمْنٌ منا لكم ، فإنَّا لا نحاوركم ولا نُسَابُّكم (لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ) : أى لا نطلب الجاهلين والسفهاء للجدال والمراجعة والمشاتمة ولا نريد صحبتهم ومخالطتهم ، وهذا تعليل لمتاركتهم .

قال ابن إسحاق فى السيرة : قدم على رسول الله - وهو بمكة - عشرون[٢] رجلًا أو قريب

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٢

(٢) هذه الرواية تخالف ما حكاه القرطبى من أنهم كانوا أربعين من أئمة النصارى ، وتقدمت هذه الرواية .

من ذلك من النصارى حينما بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه بالمسجد، فجلسوا إليه وكلَّموه وسألوه - ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عمَّا أرادوا دعاهم إلى الله - تعالى - وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم: خيَّبكم الله مِنْ رَكْبٍ، بعثكم مَنْ وَرَاءكم مِنْ أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقْتُمُوه فيما قال، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، أو كما قالوا- فقالوا لهم: سلامٌ عليكم، لا نُجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَأْلُ أنفسنا خيرًا - ويقال: إنهم النَّفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أيُّ ذلك كان، قال: وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه، وكذلك الآيات التى فى سورة المائدة: « ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا » إلى قوله: « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » اهـ: ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٤

٥٦ - (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

المعنى: إنك - أيها الرسول - لا تقدر على هداية قلوب من أحببتهم إلى الحق، بأن تدخلهم فى الإسلام وإن بذلت فى ذلك غاية المجهود، وجاوزت فى السعى إليه كل حد معهود، ولكن الله يهدى من يشاء هدايته فيدخله فى الإسلام، وهو - سبحانه - أعلم بالمستعدين لذلك وهم الذين يشاء - سبحانه - هدايتهم، ومنهم من ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب(1).

وقال الزمخشرى: المعنى: إنك لا تقدر أن تُدْخِلَ فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم؛ لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره، ولكن الله - تعالى - يقدر على أن يُدْخِل من يشاءُ إدخاله، وهو الذى علم - سبحانه - أنه غير مطبوع على قلبه.

وقال الآلوسى: هذه الآية سيقت لتسليته ﷺ حيث لم ينجع فى قومه الذين يحبهم إنذارُه - عليه الصلاة والسلام - إيَّاهم وما جاء به من الحق، بل أصروا على ما هم

(١) الآلوسى.

عليه وقالوا: « لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ » ثم كفروا به وبموسى ، فكانوا على عكس قوم أجانب من أهل الكتاب ، حيث آمنوا بما جاءه من الحق ، وقالوا : إنه الحق من ربنا ، ثم صرحوا بتقادم إيمانهم به ، وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيهم وبما جاء به أيضًا ، وذلك فيما حكاه الله بقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ » إلى قوله : « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ »[1] .

وقال ابن كثير : قد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم النبى ﷺ .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه – رضى الله عنه – قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أُمَيَّة ابن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل : لَا إِلٰه إِلَّا الله ، كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أُمَيَّة : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، وَيَعُودان له بتلك المقالة ، حتى كان آخر ما قال هو على ملّة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لَا إِلٰهَ إِلَّا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عن ذلك » ، فأنزل الله – تعالى – : « مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِى قُرْبَىٰ »[2] . وأنزل فى أبى طالب : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ » وخالف فى ذلك الشيعة ، وقالوا بإيمانه ، وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك .

---

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٣

(وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾)

المفـردات :

(نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) : أى نُخرج من أرضنا ومقرِّنا ، أويبطش بنا أعداؤنا . قال الآلوسى : وأصل الخطف ؛ الاختلاس بسرعة ، فاستعير لما ذكر .

(أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا) : أى أو لم نهيِّء لهم فى الأرض حرماً مكيناً ونمنعهم فيه من العدوان. (يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ) : يحمل إليه ويجمع فيه من كل جانب وجهة ؛ عن ابن عباس وغيره .

(بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا) : اغتر أصحابها ولم يقوموا بحق النعمة ، من البطر ، وهو : جحود النعمة وكفران الفضل . وفى القاموس : البطَرُ : الأَشَرُ وقلَّة احتمال النعمةِ ، أو الطغيان بها ، وفعله : كَفَرِح[1] . اهـ .

(أُمِّهَا) : فى القاموس ؛ أُمُّ كل شيء : أصله وعماده وأُمُّ القرى : مكَّةُ ؛ لأنها توسّطت الأرض ، أو لأنّها قبلة الناس يؤُمُّونها .

(لَاقِيهِ) : مدركٌ له ، ظافر به .

(الْمُحْضَرِينَ) : الذين يُحْضَرُون مرغَمين للعذاب ، وفى القاموس : حضر - كنصروعلِم - حضوراً ، ضد غاب (كاحتضر وتحضر) .

التفسير

٥٧ - (وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ...) الآية .

هذا قول بعض مشركى مكة[2] ، قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش : الحارث ابن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشىّ ، قال للنبى ﷺ : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافةَ أن يتخطَّفنا العرب من أرضنا - يعنى مكة - لاجتماعهم على خلافنا ولاطاقة لنا بهم ، وهذا من تَعِلاَّتِهم الكاذبة ، وأعذارهم الباطلة ، وحججهم الواهيةِ . وفيه ما فيه من اعترافهم بأن ما مع محمد - عليه السلام - هو الهدى ، وتسجيلهم على أنفسهم أنه ما صدّهم عن الإيمان به إلا خوفهم على مصالحهم وفزعهم من ثورة العرب عليهم إذا أسلموا ، وقد أجاب الله عن تعللهم هذا بقوله :

(أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا) : أى أو لم نعصمهم ونثبت أقدامهم ونجعل مقرهم حرما أمينا لحُرْمةِ البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله ، ولا تجترئ على القتال فيه ، وكانت العرب فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض لأوهى الأسباب ، وأهل مكة آمنون فى حرمهم لايخافون ، ومع أنهم قارُّون بواد غير ذى زرع فإن الثمرات والأرزاق تجمع لهم من كل صوْب ويحملها الناس إليهم من كل حدب ،

---

(١) قاموس ج ٤ ص ٣٧٤

(٢) انظر القرطبي والكشاف .

وكان هذا كله رزقاً من عند الله لا فضل فيه إلا لله وحده ، فإذا ما خوّلهم الله الأَمن والأَمان والاستقرار والاطمئنان والرزق الواسع بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أَصنام ، فكيف يستقيم أن يُعرِّضهم للتخوف والتخطف ، ويسلبهم الأَمن إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام ؟ .

قال يحيي بن سلام : يقول : كنتم آمنين فى حرمى تأْكلون رزقى ، وتعبدون غيرى أفتخافون إذا عبد تمونى ، وآمنتم بى ؟

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون فهم غافلون عن الاستدلال بِأَنَّ مَنْ رزقهم وأَمَّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أَسلموا ويمنع الكفار عنهم .

٥٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) :

بيَّن الله فى الآية السابقة فساد دعواهم الخوف من الناس إن آمنوا ، وبيَّن فى هذه الآية أَنهم أَحِقَّاءُ بالخوف من بأْس الله الذى يشاهدونه بأَعينهم كلما ساروا بقوافلهم على آثار من هلك قبلهم ، وبقايا وخرائب المدن والقرى التى جحدت آلاءَ ربها وكفرت بأَنبيائها كما يكفرون بنبيهم ، فعذبهم الله بكفرهم وذكَّرهم فيها بأَن ما حدث فى الماضى لغيرهم يمكن أن يقع لهم فى الحاضر والمستقبل وحينئذ يتبين أن الخوف فى الكفر لافى الإيمان .

أى : وكثير من أهل القرى كانت حالهم كحال هؤُلاء فى الأَمن وخفض العيش والدَّعةِ والاطمئنان حتى بطروا واغترُّوا ولم يقوموا بحق النعمة من الشكر عليها بالإيمان ، فدمَّرنا عليهم وخربنا ديارهم ، وتلك مساكنهم التى تمُرُّون عليها فى أَسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا ، لم تسكن من بعد تدميرهم إلَّا زماناً قليلا ؛ إذ لا يسكنها إلا المارة أَثناءَ سفرهم يوماً أَو بعض يوم .

٥٩ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا) :

قال الآلوسى : هذه الآية الكريمة فيها بيان للعنايةِ الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة .

والمعنى : ما صحَّ وما استقام ، أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يُهْلِك القرى قبل الإنذار ، بل كانت سنته - عزَّ وجلَّ - التى لا تتخلف ودستوره الذى لا يتغير ألَّا يهلكها حتى يبعث فى أصلها وحاضرتها التى ترجع تلك القرى إليها رسولا يتلو عليهم آياتنا الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ويوضح لهم المنهج ، وإنما أهلكهم بعد إلزامهم الحجَّة بإرسال الرسول كيلا يقولوا : « لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ »[1]. وتحقيقاً لوعده الذى لايتخلف : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[2] .

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) : أى وما كنا مهلكى أهل القرى بعد ما بعثنا فى أُمِّها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه فى حال من الأحوال إلا فى حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا ، فاعتبروا - يا كفار مكة - بما حدث لمن كان قبلكم ، وما يمكن أن ينزل بكم .

وإنما كان البعث فى أم القرى لأن فى أهل البلدة الكبيرة فطنة وكَيْسا ، فهم أقبلُ للدعوة وأشرف ، وفى إيمانهم عون على إيمان غيرهم .

٦٠ - (وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

بيَّن الله فى الآيات السابقة فساد رأى المشركين فى رفضهم الإسلام خوفاً على أنفسهم بقولهم : (إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) وجاءت هذه الآية لتبين حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٤٧

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٥

والمعنى : أى شىء أصبتموه من أمور الدُّنيا وزينتها فشأْنه أن يتمتَّع به أيَّاماً قلائل ثم يزول عنكم أو تزولون عنه ، وما عند الله فى الجنة من الثواب خير فى نفسه من ذلك ؛ لأنَّه لذَّة خالصة عن شوائب الألم ، وبهجة كاملة عارية عن سمات الهمّ ، وأبقى ؛ لأنه أبَدِىّ ، أغفلتم فلا تعقلون هذا الأمر الواضح وتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وتخافون على ذهاب ما أحببتموه من متاع الحياة الدنيا ، وتمتنعون من اتباع الهدى المفضى إلى ما عند الله من سعادة أبدية ؟

٦١ـ (أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) :

هذه الآية الكريمة تقرير وتوضيح لما قبلها ، ومعناها ـ كما قال ابن كثير ـ : أفمن هو مؤمن مصدّق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لامحالة ؛ لأن وعده ـ تعالى ـ لا يتخلف ، كمن هو كافر مُكذِّب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو مُمتَّع فى الحياة الدنيا أيَّامًا قلائل ثم هو يوم القيامة من المُحضرين ، أى : من المعذبين ـ كما قال مجاهد وقتادة .

وفى سبب نزولها قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وأبى جهل بن هشام .

وقال مجاهد : نزلت فى النبى ﷺ وأبى جهل ، وعمَّم الثعلبى فقال : نزلت فى كل كافر مُتِّعَ فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : تحقق مؤدى القول على الشياطين والدعاة إلى الكفر ، والمراد بالقول : آيات الوعيد ، كقوله تعالى : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[1] .

(أَغْوَيْنَا) : أضللنا بأن دعوناهم إلى الغي وهو الضلال ، وغَوَى يغوِي غيًّا : ضلّ .

(١) سورة السجدة ، من الآية : ١٣

(تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ) : تبرأ بعضنا من البعض ، فالشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساءُ يتبرءُون ممن تبعهم .

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ) : خفيت عليهم الحجج خفاء المرئى على الأعمى

(لَا يَتَسَآءَلُونَ) : لايسأل بعضهم بعضاً عن الحجج .

(ما كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) : قال الآلوسى : الخيرة ، التخيرُ ، كالطيرة بمعنى التَّطيُّر ، والخِيَرَةُ والتَّخَيُّرُ : الاختيار .

(مَاتُكِنُّ صُدُورُهُمْ) : ما يخفون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة وعداوتهم للرسول .

(وَمَا يُعْلِنُونَ) : ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والطعن فى الإسلام .

(لَهُ الْحُكْمُ) : لله وحده القضاء النافذ فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره .

التفسير

٦٢ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

لايزال الحديث متصلا عن أحداث يوم القيامة ، ففى هذه الآية إشارة إلى ما يوبخ الله به الكفار المشركين فى هذا اليوم حيث يناديهم ويسألهم فيقول : (أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) : أى أين الآلِهَةُ التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا من الأصنام أو غيرها ليدافعوا عنكم وليشفعوا فيكم ؟ والتعبير بشركائى ، تقريع لهم على زعمهم ، وفيه تهكم بهم . والتعبير بلفظ : (تَزْعُمُونَ) للإشارة إلى كذبهم ، فقد قيل : « زعموا » مطية الكذب .

٦٣ - (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) :

الآية الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا صدر عنهم من قول حينئذ ؟ فقيل : قال الذين حق عليهم القول وهم شركاؤهم من الشياطين ، أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله ، بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوهم عنه :

(رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) :

أى : ما أكرهناهم على الغَىِّ ، وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتّسويل لا بالقسر والإلجاء ، فغووا باختيارهم غيًّا مثل غيِّنا باختيارنا ، تبرأنا إليك منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى منهم للباطل ومقْتاً للحق ، ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم ، ومسارعة الذين حق عليهم القول إلى الجواب مع كون السؤال لِلْعَبَدةِ ، إمّا لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن الْعبدةَ سيقولون : هؤلاء أضلُّونا ، وإمّا لأن العبَدةَ قد قالوا : إنهم أضلُّونا ، فاعتذر هؤلاء المعبودون بما قالوه ردًّا لقولهم ، إلا أنَّ القرآن لم يَحْك قول العبدة إيجازا لظهوره .

ومرادهم بالإشارة فى قوله « رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » : بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم ، وأنّهم غير قادرين على إنكاره ورده .

٦٤ — (وَقِيلَ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ) :

وقيل للكفار تقريعاً لهم ، وتهكماً وتشهيرًا بهم على رءوس الأشهاد بدعاء من لا نفع فيه لنفسه — قيل للكفار — : استعينوا بآلِهتكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم ، وتدفع عنكم كما كنتم ترجون منهم ذلك فى الدار الدنيا ، فاستغاثوا بهم ، فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ولأنهم فى شغل شاغل عنهم ، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، ولو أنهم كانوا يهتدون لوجْه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب ، أو : لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه .

قال الزمخشرى : حكى — سبحانه وتعالى— أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم ؛ لأنهم إذا وُبِّخُوا بعبادة الآلهة اعتذروا أن الشياطين هم الذين استفزوهم وزينوا لهم عبادتها ،ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم ، وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وقطع الحجة ، وإبطال المعاذير فى قوله تعالى :

٦٥ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ) :

أى : واذكر - أيها الرسول - كذلك يوم يُنَادَى المشركون من جانب الله - تعالى - نداء توبيخ ، فيُقال لهم : بأى شىء أجبتم رسلى الذين بعثتهم لإرشادكم ودعوتكم للإيمان والتوحيد فبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وكيف كان حالكم معهم ؟

٦٦ - (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ) :

أى : فخفيت عليهم الحجج وغابت ، قال مجاهد : لأن الله قد أدحض حججهم ، وقال الزمخشرى : لايسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس فى المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب ، وإذا كان الأنبياء - لهول ذلك اليوم - يترددون فى الجواب عن مثل هذا السؤال لعجزهم ويفوضون الأمر إلى علم الله ، وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ »[1] فما ظنك بالضُّلَّالِ من أممهم ؟ .

٦٧ - (فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ) :

لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - من حق عليهم القول من التابع والمتبوع قال - سبحانه وتعالى ، حثا لهم على التوبة والإقلاع عن الشرك - : فأما من تاب من المشركين عن الشرك وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بالمطلوب عنده - عز وجل - الناجين من الهلاك ، فلا جدوى لتوبة بغير إيمان ولا حجة لإيمان بغير عمل صالح ، وقد جاء هذا المعنى فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ »[2] .

و (عسى) للتحقيق على عادة الكرام ، فهى من الله واقعة بفضله وكرمه ومنِّه ووعده الذى لا يتخلف ، والتعبير بعسى ليعلم أن الإنسان مهما عمل صالحاً فليس له إلا الرجاء والأمل فى رحمة الله ، وفى الحديث الصحيح : « لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت

---

(١) المائدة الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة طه الآية : ٨٢

يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[١] » وقيل : (عسى) للترجى من قِبل التائب المذكور ، بمعنى : فيتوقع أن يفلح ويفوز .

٦٨ - (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة أن الشركاء لا ينفعُون المشركين فى أُخراهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الأمر كله لله ، ولهذا اختار لعباده من يرشدهم إلى سواء السبيل ، فليس لهم الخيرة فى عقائدهم ولا فى اختيار رسلهم ، كما نزلت لكى ترد على أُولئك الذين يقترحون على الله الرسل ، كالوليد بن المغيرة حيث قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » يعنى بذلك نفسه من مكة ، وعُرْوَةَ بن مسعود الثقفى من الطائف .

والمعنى : وربك يخلق ما يشاءُ من خلقه بقدرته ويختار منهم من يشاءُ بحكمته لطاعته وحمل رسالته ، على مقتضى علمه باستعدادهم لذلك ، فليس فى مقدور الخلق ولا من حقهم أَنْ يختاروا على الله ما يشاءُون من أديان باطلة وآلهة زائفة ، تنزَّه الله تعالى بذاته تنزُّهًا خاصًّا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره ، وتقدس وتمجد عن إشراكهم .

قال الزمخشرى : إن الاختيار إلى الله - تعالى - فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، ولا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم .

وجعل بعضهم (سبحان الله) تَعْجِيبًا من إشراكهم من يضرهم ولا ينفعهم بمن يريد لهم الخير ويسوق لهم النِّعم .

٦٩ - (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

وربك - أيها الرسول - يعلم ما يخفُون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لك ، ويعلم ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والطعن فيك ، وقولهم : هلَّا اختير غيرك للنُّبوة ، فهو - سبحانه - يعلم ما تُكِن الضمائر وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تُبْديه الظواهر من جميع الخلائق : « سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ »[٢] والآية الكريمة تهديد وتحذير شديد لأعداء الله ، لأنه - سبحانه - يعلم كل

(١) صحيح البخارى (كتاب الطب) باب تمنى المريض الموت .
(٢) سورة الرعد الآية : ١٠ .

ماتجيش به صدورهم من الشر ، وما يجول بعقولهم من الإثم ، ويعلم بكل ما يعلنونه على ملأ من الناس من ضلال .

٧٠ـ (وَهُوَ اللهُ لآ إِلَٰه إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

وهو ـ سبحانه ـ المستأثر بالألوهية المتفرد بها ، لا ربّ غيرُه ولا معبود سواه ، له وحده كل الحمد ، وجميع الثناء والشكر لا إلى غيره ، لأنه المُولى للنعم كُلِّها ـ عاجلها وآجلها ـ على الخلق كافة ، يحمده المؤمنون فى الدنيا على إنعامه وهدايته ، وفى الآخرة على عدله ومثوبته ، وله القضاءُ النافذ فى كل شىءٍ من غير مشاركة فيه لغيره . عن ابن عباس : له الحكم بين عباده فيحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل ، ولأهل معصيته بالشقاء والويل ، لا مُعقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ، وإليه ترجعون لا إلى غيره فيجزى كلّ عامل بعمله من خير وشر ولايخفى عليه منكم خافية .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾)

المفـردات :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(سَرْمَدًا) : دائمًا متصلًا مؤبدًا ، وهو عند البعض من السَّرد : وهو المتابعة ، ومنه قولهم : الأشهر الحرم ثلاثة سَرْدٌ ، وواحد فرد ، والميم زائدة لدلالة الاشتقاق عليه .

(تَسْكُنُونَ فِيهِ) : تستقرُّونَ فيه ، مأُخوذ من (السَّكن) وهو الهدوءُ والطمأُنينة .

(وَنَزَعْنَا) : أخرجنا بشدة وأبرزنا بسرعة ، وجاء فى اللُّغة : نَزَعَه من مكانه ينزعه قَلَعَه ، كانتزعه .

(شَهِيدًا) : أى شاهدًا . (بُرْهَانَكُمْ) : حجتكم .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ) : ذهب وغاب عنهم غيبة الشىء الضال ، أى : الضائع ،

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : أى ما كانوا يختلقونه فى الدنيا من الباطل والكذب على الله ـ تعالى ـ من أنَّ معه آلهة تُعْبَد .

التفسـير

٧١ ـ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) :

انتهت الآيات السابقة بإثبات الوحدانية لله ـ تعالى ـ وانفراده بالخلق والاختيار ، وعلمه السرائر والظواهر ، واستحقاقه وحده الحمد من عباده ، فى الدنيا على إنعامه وهدايته وفى الآخرة على عدله ومثوبته ، وتفرده بالحكم والفصل بين العباد ، وإليه المرجع والمصير.

وتواصل هذه الآية وما بعدها توكيد هذه المعانى وتوضيحها بأمثلة مُحَسَّة تشهد له ـ سبحانه ـ بكل ما سبق وبأنه صاحب النعم وواهب المنن ، فالآيات القرآنية الثلاث الآتية تنبه الناس إلى حقيقة يجب أن يفهموها ، وهى أنه ـ تعالى ـ لو خلق الأرض بحيث يكون ليلها دائمًا ، أو بحيث يكون نهارها كذلك فليس هناك إلٰهٌ غيره ينعم عليهم باللَّيل والنَّهار

المتعاقبين ، وبفضل الله ورحمته كان النظام الكونىّ يكفل تعاقب الليل والنهار فيكون السكون والهدوءُ فى اللَّيل ، والسعى والكدح فى النَّهار وبهذا يتهيأُ التوقيت الصالح لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا فضل من الله على عباده ، يستدعى الإقرار بقدرته ودوام شكره .

ومعنى الآية : أخبرونى من يقدر على هذا ؟ إن جعل الله عليكم اللَّيل دائمًا متصلًا متتابعًا إلى يوم القيامة فأصبح الكون ملفوفًا فى ليل دامس لا يعقبه نهار ، وظلام طامس لا يأْتى بعده ر ، أخبرونى من إلهٌ غير الله يأْتيكم بنور تبصرون فيه معايشكم وتنطلقون فى أرجاء الأرض أنحائها تعمرونها ، فتزرعون وتتاجرون وتنتقلون من مكان إلى مكان ، أفلا تسمعون هذا لكلام الحق سماع تدبر واستبصار وقبول للدلائل الباهرة ، لتعرفوا أن غير الله – تعالى – لا يقدر على ذلك فتقوموا بشكره ، وتعترفوا بفضله ، وتُقِرُّوا بوحدانيته .

٧٢ – (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) :

ثم أخبر – سبحانه وتعالى – أنه لو جعل النهار دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة بحيث تعملون دائمًا دون انقطاع من إله غير الله يأْتيكم بليل تستريحون فيه من التعب ومشاق الحياة وتفرغون فيه من النصب ؟ أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطإ فى عبادة غيره ؟

وقال الآلوسى : أفلا تبصرون الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، لتقفوا على أن غير الله لا قدرة له على ذلك ؟ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على الإتيان باللَّيل والنَّهار غيره فلم تشركون ؟

وقال البيضاوى : لعله لم يصف الضياء بما يقابله لأن الضوءَ نعمة فى ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك اللَّيل ، ولأن منافع الضوء أكثر مما يقابله ، ولذا قرن به أفلا تسمعون ، وباللَّيل أفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر . اهـ : بيضاوى .

ولذا ما اجتمع السمع والبصر فى موضع من كتاب الله إلَّا وقُدِّم السمع على البصر .

قال – تعالى –: « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »[1] ، « وَهُوَ الَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ »[2] .

ولقد ذكر العلماء والمحدثون فى تعليل ذلك أن السمع أول الحواس يؤدى وظيفته فى الدنيا ، وهو أداة الاستدعاء فى الآخرة ، ولأن الأذن لا تنام فالسمع أسبق وأنفع وأدوم ، وللعلامة الآلوسى تعليق مطول على الآيتين فى الجزء السابع ص ١٠٧ وما بعدها فليرجع إليه من أراد التوسع .

٧٣ – (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى : وبسبب رحمته بكم خلق لكم الليل والنهار لتسكنوا فى الليل وتستريحوا من عناءِ الأعمال وأعباءِ الحياة وأثقال المعيشة ، ولتطلبوا الرزق الحلال بالنهار بالأسفار والترحال والضرب فى الأرض ، ولتدركوا فضل الله عليكم فتشكروه بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شئٌ بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل كما قال – تعالى – : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »[3] .

٧٤ – (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

المعنى : واذكر كذلك – أيها الرسول – يوم يُنادَى المشركون من جانب الله فيقال لهم : أين الشركاء الذين زعمتموهم آلهة ينصرونكم أو شفعاء يشفعون لكم ؟

وهو تقريع إثر تقريع ، للإشعار بأنه لا شىء أجلب لغضب الله – تعالى – من الإشراك ، كما لا شىء أدخل فى مرضاته من توحيده – عز وجل .

يقول القرطبى : ينادى الله المشركين مرة فيقول لهم : « أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا تستجيب فتظهر حيرتهم وخزيهم ، ثم ينادَون مرة أخرى على رءوس الأشهاد فيسكتون ، وهو توبيخ وزيادة خزى .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٦

(٢) المؤمنون ، الآية : ٧٨

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٦٢

٧٥ - (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

الآية الكريمة إنذار بما ينتظر هؤلاء المشركين يوم القيامة لجدالهم فى وحدانية الله ، وتعاميهم عن نعمه عليهم ورحمته بهم .

والمعنى : وأخرجنا يوم القيامة من كل أُمة شاهدًا يشهد عليهم بما كانوا عليه ، وهو نبى تلك الأُمة كما روى عن مجاهد وقتادة ، ويؤيده قوله - تعالى - : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا »(١) . فقلنا لكل أُمة من الأُمم : هاتوا حجتكم وأَحضرُوا دليلكم على صحة ما تدينون به ، وعلى صدق ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، فعلموا يومئذ أَن الحق لله فى الألوهيَّة لا يشاركه - سبحانه - فيها أحد وَلَا إِلٰهَ غيره ولم يجدوا جوابًا ، وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يختلقونَه من الكذب على الله - تعالى - من أن معه آلهة تعبد .

ويقول ابن كثير : (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى : ذهبت معبوداتهم فلم ينفعوهم .

ويقول الآلوسى : وصيغة الماضى فى « وَنَزَعْنَا » للدلالة على التحقق والثبوت ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النزع وتهويله ، لصدوره من المولى - عز وجل - فهو نزع يليق بعزيز قوى . والله أعلم .

* (إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾)

(١) سورة النساء الآية : ٤١

المفـردات :

(فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) : أى ظلمهم ، أو تكبر عليهم .

(الْكُنُوزِ) : الأموال المدخرة المحبوسة ، من : كنزه ، بمعنى : ادَّخره وحبسه عن الناس ، ومنه قوله تعالى : « الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ » .

(مَفَاتِحَهُ) : جمع مِفتح – بكسر الميم – وهو المفتاح الذى تفتح به الأغلاق ، أو جمع : مَفْتح – بفتح الميم والتاء – وهو الوعاء الذى يكنز فيه كالصندوق .

(لَتَنُوٓءُ بِالْعُصْبَةِ) : العصْبة ، الجماعة يتعصب بعضها لبعض ويشد أزره ، ومعنى « تَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » : تثقلها ، يقال : ناءَ به ، وأناءه ، أى : أثقله ، كما يقال : ذهب به وأذهبه ، فالباءُ للتعدية ، وبه قال الخليل وسيبويه والفراءُ ، واختاره النحاس ، وسيأتى بسط الكلام فى تفسيره .

(لَا تَفْرَحْ) : أى لا تفرح بدنياك فرحًا يذهلك عن أخراك .

(الْفَرِحِينَ) : قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواءٌ ، ونزيد على ما قاله : أن الفَرِح صيغة مبالغة تفيد زيادة الفرح .

(وَابْتَغِ) : واطلب . (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ) : ولا تطلبه .

التفسير

٧٦ – (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ . . .) الآية .

اختلف فى قارون من جهة قرابته لموسى – عليه السلام – فمنْ قائل : إنه ابن عمه ، وهو ما روى عن ابن عباس وابن جريج وغيرهما – ومن قائل : إنه عمه ، وحكاه محمد ابن إسحٰق ، ومنهم من قال : إنه ابن خالته ، ولم نجد لهذه الروايات سندًا ، وحسبنا ما قاله الله – تعالى – فى نسبه من أنه من قوم موسى ، أى : من بنى إسرائيل ، ويصفه الله بأنه بغى عليهم ، والبغى – فى اللُّغة – : التطاول ومجاوزة الحد ، وقد فسره المفسرون هنا بتفسيرات

مختلفة ، فمنهم من فسره بالتكبر ، فإنه كان جميل الصورة واسع الثراء ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، فتكبر عليهم لذلك ، ومنهم من فسره بالظلم ؛ لأن فرعون ملكه عليهم فظلمهم وبغى عليهم ، والذى نراه أن لكنوزه دخلًا فى ظلمه ، لأن منْ نصحوه من قومه قالوا له : « وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ » فهذا واضح فى أن ماله أغراه بالإفساد والظلم ، ولذا عقبه الله بقوله : « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ... الآية » .

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ) :

أى : وأعطيناه من كنوز الأموال ما دفعه إلى التكبر والتعالى على قومه وظلمهم ، فالمراد من الكنوز ؛ الأموال المدخرة ، ويصف الله عظمة هذه الكنوز بأن مفاتحها تنوءُ بالعصبة أولى القوة ، والمراد من المفاتح الخزائن . قال الضحاك : مفاتحه : ظروفه وأوعيته ، وروى نحو ذلك عن ابن عباس والحسن ، وعلى هذا الرأى تكون مفاتح جمع مفْتَح ـ بفتح الميم وسكون الفاء ـ أى : مكان الفتح ، وهو الوعاءُ .

ومنهم من قال : إنه جمع مِفتح ـ بكسر الميم وسكون الفاءِ ـ وهو المفتاح الذى تفتح به الخزانة ، والأول أقرب إلى التعقل ؛ فإن العُصبة أُولى القوة تقْدر على حمل المفاتيح ، ولا تنوءُ بها ، وإنما تنوءُ بحمل الخزائن ، والله أعلم .

والعصبة : الجماعة الكثيرة من غير تعيين بعدد خاص كما قاله الراغب ، ومنهم من عين لمعناها عددا خاصًا من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروى عن مجاهد ، ومنهم من زاد إلى سبعين .

وقال الخفاجى : إن أصل معناها : الجماعة مطلقًا ـ كما هو مقتضى الاشتقاق[1] ، والعرف هو الذى يخص العدد ، ومعنى (تنوءُ به العصبة أولو القوة) : تنهض به متثاقلة كما قال ابن عباس وأبو صالح والسُّدى وبه قال الخليل والفراءُ والنحاس .

---

(١) فإن أصلها الجماعة يتعصب بعضهم لبعض .

وبعض المفسرين جعل هذه العصبة من الرجال ، وحددوها بأربعين رجلا أقوياء ،ونسبوا هذا إلى ابن عباس ،حيث رووا عنه أن المفاتح هى الخزائن، وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء .

وبعضهم جعلها من الحيوانات كالبغال والخيل، وإطلاق العصبة عليها لغوى ؛ قال صاحب القاموس : العصبة - بالضم -من الرجال والخيل والطير : ما بين العشرة إلى الأربعين ، كالعصابة - بالكسر - ونقول : إنهم أخذوا هذا المعنى من العَصْب ، بمعنى الشد ، فإنها يشد بعضها أزر بعض ، وبعضهم جعل المفاتح كناية عن العلم والحفظ ،كما فسروها فى قوله تعالى : « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » فالمراد من الآية : وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والإحاطة بها ليثقل على الجماعة القوية من الرجال ، لاختلاف أصنافها وكثرتها التى تتعب القائمين على حفظها وحسابها والإحاطة بها ، وهذا هو تفسير أبى مسلم للآية ، وهو - وإن استبعدوه - له سنده من قوله تعالى : « وَعِندهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » كما أنه تجنَّب فيه المبالغات التى ذكرها كثير من المفسرين فى تفسيرها : « إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » .

قال ابن عطية :(إِذْ قَالَ) متعلق ببغى عليهم ، أى : بغى على قومه إذ قالوا له : لا تفرح ورجح بعض المفسرين تعلقه بمحذوف يقتضيه المقام ، أى : فأظهر قارون الفرح بكنوزه إذ قال له الأتقياء من قومه : لا تفرح بها إن الله لا يحب الفرحين ،وقد نهوه عن فرحه الذى أورثه البغى ، ومنعه حق الله تعالى ، فهذا هو الذى يُنْهى عنه، أما الفرح سرورا بنعمة الله ورضا عنها مع أداء حقها المشروع فلا ينهى عنه، لأنه نوع من الشكر على النعم الذى حضَّن عليه الشرع ، كما قال - تعالى - : « وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ».[1] والمراد من عدم محبة الله للفرحين البطرين : بغضه لهم ، وإبعادهم عن حضرته وعن كرمه .

والمعنى العام للآية : إن قارون كان من بنى إسرائيل قوم موسى ، فظلمهم وتكبر عليهم بما أوتيه من علم وجاه ومال . وأعطيناه من الأموال التى كنزها وحبسها عن مَبَرَّات الآخرة - أعطيناه - ما إن خزائنه لتثقل الجماعة القوية من الدواب التى تحملها ، أو من الرجال القائمين على حفظها وحسابها وتدبير أمرها ، فأظهر قارون الفرح والتفاخر بكنوزه ، إذ قال له أتقياء قومه : لا تفرح بها فرح البطر والكفران ، إن الله لا يحب الفرحين البطرين الذين يكفرون ولا يشكرون ، بل يبغضهم وينتقم منهم .

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٧

٧٧ـ (وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) :

واطلب فيما أعطاك الله من الكنوز والأموال ثوابا فى الدار الآخرة بِصَرْفها فى مصارف البر والتقوى ، ولا تترك حظك من الدنيا ترك المنسى ، فخذ من زينتها وطيباتها ورزقها ما تتجمل به ويعينك على تقوى الله - تعالى - ويقيك شر الحاجة ، وأحسن إلى عباد الله - تعالى - كما أحسن الله إليك تأسيا بصنيعه معك ، أو : أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله إليك بالنعم[1] ، ولا تطلب بهذه الكنوز الفساد فى الأرض والبغى على العباد إن الله لا يحب المفسدين ، بل يبغضهم وينتقم منهم .

(قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(أُوتِيتُهُ) : أعطيته .

(الْقُرُونِ) : جمع قرن ، واختلف فى زمنه ، وأصح ما قيل فيه : إنه مائة سنة ؛ لقوله ﷺ لغلامه : « عِشْ قرنًا » فعاش مائة سنة ، ويطلق على كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد ، قاله صاحب القاموس وهو المراد هنا ، ويطلق أيضًا على أهل زمان واحد ، ومنه قول الشاعر :

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهمُ ... وخُلِّفْتَ فى قرن فأنت غريب

---

(١) ويجوز أن تكون الكاف فى كلا المعنيين للتعليل ، أى : أحسن لأجل إحسان الله إليك .

ذكره صاحب المختار .

(الْمُجْرِمُونَ) : المذنبون ، والجرْم والجريمة : الذنب .

التفسير

٧٨ - (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى . . .) الآية .

لما نصح أتقياءُ بنى إسرائيل قارونَ بأن يحسن الإنفاق من ماله كما أحسن الله به إليه ، ظن أنهم يصفونه بأنه أوتيه إحسانًا عليه بغير سبب يقتضيه ، فرد عليهم بقوله : « إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى » واختلف فى تفسير هذا العلم ، فقيل : إنه علم التوراة فإنه كان أعلم بنى إسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الدارانى : علم التجارة ووجوه المكاسب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن ، وقيل : علم الكيمياء ، فكان يحول الرصاص والنحاس ذهبًا ، ورده العلماء بأن فيه دعوى قلب الحقائق ، وذلك لا يكون إلَّا لله - تعالى - ولم يثبت حدوثه منه بطريق صحيح ، وما يشاع بين العامة من إمكان ذلك ، إنما هو من باب الأراجيف التى لم تثبت فى الواقع ، بل هى من باب الصبغ والتزييف[1] .

وقال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسيرها : إنما أُوتيتُه على علم من الله باستحقاقى إياه ، فلولا رضاه عنى وعلمه بفضلى ما أعطانيه ، وكلمة (عِندِى) على هذا الرأى معناها : فى ظنى واعتقادى[2] وقد رد الله عليه بقوله : (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) :

أى : أَجَهِل قارون فبغى على قومه وأفسد فى الأرض ، ولم يعلم أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله من الأمم الخوالى من هو أشد منه قوة فى الآلات ، وجمعًا للأعوان والأنصار والأموال ، ولا يسأل عن ذنوبهم المذنبون سؤال استعلام أو معاتبة واسترضاء ، وإنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، لقوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فكيف جهل قارون ذلك فأفسد وبغى وزعم أنه أُوتى كنوز المال استحقاقًا ؟

---

(١) راجع ابن كثير .

(٢) و(عندى) - على هذا - خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذا عندى وفى اعتقادى ، أما على ما تقدم فهو صفة لعلم.

(فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(فِى زِينَتِهِ) : فيما تزين به من متاع الحياة الدنيا .

(وَيْلَكُمْ) : هو فى الأصل دعاء بالويل ، وهو الهلاك ، ثم شاع استعماله فى الزجر عمَّا لا ينبغى ، وهو المراد هنا .

(وَلَا يُلَقَّاهَا) : أى ولا يلقى هذه النصيحة ، أى : لا يتقبلها ويعمل بها .

(إِلَّا الصَّابِرُونَ) : على الطاعات ، وعن المعاصى .

التفسير

٧٩ـ (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) :

اختلف فى المراد من الذين يريدون الحياة الدنيا ، فقيل : هم جماعة من مؤمنى بنى إسرائيل تَمنَّوْا أن تكون لهم دنيا كدنيا قارون جريًا على سنة البشر من حب التوسع فيها ، وكان ذلك على سبيل الغبطة ، لا على سبيل الحسد ، وقيل : هم جماعة من الكفار أو المنافقين الذين لا هَمَّ لهم إلَّا دنياهم ، والظاهر مع الرأى الأول ، وتمنى مثل ما للغير لا يقدح فى الإيمان ، ولكن طلب الآخرة أفضل ، كما يشير إليه رد أهل العلم عليهم فى الآية التالية .

ومعنى الآية : فخرج قارون ذات يوم على قومه بنى إسرائيل فى زينة عظيمة وتجمل باهر : من ملابس ناضرة ، ومراكب فارهة فاخرة ، وخدم وحشم ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها ، تمنوا مثل الذى أعطيه قارون ليتمتعوا به مثل متاعه ، قائلين : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ وافر من دنياه ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم ردوا عليهم بما حكاه الله بقوله :

٨٠ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا الصَّابِرُونَ) :

أى : وقال الذين أوتوا العلم ينصحون طلاب الدنيا وزخرفها ، ويزجرونهم عن طلب التوسع فيها حتى لا تفسدهم كما أفسدت قارون - قالوا لهم - : ويلكم لا تطلبوا مثل ما أوتى قارون ولا تتمنوا مثل زينته ومتاعه الدنيوى ،ثوابُ الله فى الآخرة خيرٌ من زينته ومتاعه وأعظم مما أوتيه - من ماله ورجاله - لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل عملًا صالحًا يرضاه ، ولا يتلقى هذه النصيحة بحسن قبولها والعمل بمقتضاها إلا الصابرون على الطاعات ، وعن السيئات .

(فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـردات :

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) : أى أدخله الله وداره فى جوف الأرض ، يقال : خسف المكانُ يخسِف خسوفًا : ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض : ذهب به فيها وأدخله فى جوفها ، وخسف هو فى الأرض وخُسِفَ به[1] (فِئَةٍ) أى : جماعة (وَيْكَأَنَّ) هى كلمتان (وى) و (كَأَنَّ) . قال الخليل وسيبويه :(وَىْ) : اسم فعل بمعنى أعجب ، وتكون للتحسُّر والتندم أيضًا ، قال الجوهرى : وقد تدخل (وىْ) على (كأن) المخففة والمشددة ، تقول : (وَيْكَأَنَّ اللهَ) قال الخليل : هى مفصولة ، تقول : وىْ – ثم تبتدئ فتقول : (كأن) يعنى : أن الوقف على (وَىْ) كما فى البحر ، و (كأن) فيه عارية عن معنى التشبيه جيء بها للتحقيق ، كما فى قول الشاعر :

وأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

ويروى الثعلبى عن الفراء أن (ويكأن) كلمة تقرير ، كقولك : أما ترى صنع الله وإحسانه ؟ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين ابنك ويلك ؟ فقال : ويكأنه وراء البيت أى : أما ترينَّه ؟ وبهذا قال ابن زيد وجماعة ، وهو بمعنى ما روى عن ابن عباس– رضى الله عنهما – (ويكأن) : حرف واحد بجُمْلته ، وهو بمعنى ألم تر[2] .

التفسـير

٨١– (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) :

لما ذكر الله – تعالى – خروج قارون فى زينته ، وفخره على الناس وخيلاءه بدنياه ، وبغيه على عباد الله ، عقب ذلك ببيان ما حل به من الجزاء على البغى والخيلاء ، ويضم إليهما الكفر ، كما سيصرح به فى الآية التالية : « وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

ويرى ابن كثير أنه هو المعنى بحديث البخارى فى صحيحه ، من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو

(١) انظر القرطبى .

(٢) هذه خلاصة بحوث طويلة ، فارجع إلى القرطبى والآلوسى وغيرهما من الموسوعات إن شئت المزيد .

يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » وللتجلجل معان ، منها : الذهاب فى الأرض ، والتضعضع ، وشدة الصوت ، والوعيد ، والأخير هو أنسبها ؛ فهو فى وعيده وعقابه إلى يوم القيامة ، وهناك يعذب عذاب الكافرين حيث يخلد فى النار .

ولم نجد أحدًا من المفسرين تحدث عن الأرض التى خسف به وبداره فيها ، ويوجد فى محافظة الفيوم بحيرة صغيرة تسمى (بركة قارون) فلعله وقومه كانوا يسكنون بهذه المنطقة ، وأنه خرج على قومه فى زينته بأرضها فغيبه الله وداره فى جوفها ، ونشأت بركة قارون بسبب هبوط الأرض هبوطا شديدًا تحت مستوى المياه الجوفية ، فسارعت المياه الجوفية فملأت مكان الخسف ، ونشأت بذلك بركة نسبت إليه ، لتكون آية على مكانه وشاهدا على عاقبة بغيه وكفره ،ومعلوم أن بنى إسرائيل قد كثروا بمصر حتى أصبحوا بها أمة ، وقد أذلهم المصريون ، واستخدموهم فى بيوتهم وحقولهم ، فلما جاء موسى برسالة إلى فرعون ، وأظهره الله عليه استطاع أن يخفف عنهم ذل الأسر والاستعباد فطلب إليهم أن ينفردوا ببيوت لهم يسكنونها مستقلين عن سادتهم من المصريين ، وأن يكونوا متجاورين ، وفى ذلك يقول الله – تعالى – : « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولو صح استنباطنا من أنهم يسكنون بمنطقة الفيوم حيث بركة قارون ، فإن ذلك لا يمنع من أن بيوتهم فى مصر ، فإن الفيوم إقليم مصرى ، ولعله كان له شأن فى ذلك الزمان.

السبب المباشر للخسف بقارون وداره

يروى أنه كان كثير الإيذاء لموسى فصبر عليه ؛لأنه كان ابن عمه حتى اتهمه بالزنى فى محضر من قومه فبرأه الله وحكّمه فيه ، وفى ذلك روى ابن أبى شيبة فى المصنف، وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس « أن قارون كان ابن عم موسى – عليه السلام – وكان يتتبع العلم حتى جمع علمًا ، فلم يزل فى ذلك حتى بغى على موسى – عليه السلام – وحسده ، فقال موسى : إن الله – تعالى – أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى ؛ فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، أفتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى

بغيٍّ من بغايا بنى إسرائيل ، فنرسلها إليه فتتهمه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حُكْمك[١] على أن تشهدى على موسى أنه فجَر بكِ ، فقالت : نعم ، فجاء قارون إلى موسى – عليه السلام – قال : اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم ، فجمعهم فقالوا : بِم أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تصلوا الرحم ، وكذا وكذا ، وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أُحصن أن يرجم ، قالوا : وإن كنت أنت ، قال : نعم ، قالوا : فإنك زنيت ، قال : أنا ؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى – عليه السلام – : أنشدك بالله إلَّا ما صدقتِ فقالت : أما إذْ نشدتنى[٢] بالله – تعالى – فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعْلًا [٣] على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برئ وأنك رسول الله . فخر موسى ساجدًا يبكى ، فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمُرها تطعك ، فرفع رأسه فقال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم . . . الحديث » .

وفى تبرئة الله لموسى مما اتهموه به يقول الله – تعالى – فى سورة الأحزاب : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا »[٤] . وهناك روايات أُخرى فى سبب خسفه ، وحسب القارئ ما تقدم .

المعنى الاجمالى للآية

فخرقنا بقارون وبداره الأرض وغيبناهما فى جوفها ، فما كان له من جماعة غير الله يدفعون عنه نقمة الله ونكاله ، وما أغنى عنه ماله وخزائنه ولا حماه خدمه وحشمه وأنصاره ، وما صح ولا استقام أن يكون من الممتنعين من بطش الله بأى سبب من أسباب الامتناع ، فإنه لا بد واقع ، ليس له من دافع .

٨٢ – (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

---

(١) أى : ما تحكمين به من المال أجراً على اتهامه بالزنى .

(٢) أى : سألتنى .

(٣) أى : أجراً .

(٤) الآية : ٦٩ .

(وأَصبَح) هنا بمعنى : وصار ، و (بِالْأَمْسِ) بمعنى : منذ زمان قريب ، واستعماله بهذا المعنى مجاز مشهور ، ومن المفسرين من حملهما على معناهما الحقيقى ، ونحن نؤثر المعنى الأَول فى تأْويل الآية ؛ لما فيه من الاحتياط فى تأْويلها ، ولشموله للمعنى الثانى أَيضا .

ومعنى الآية : وصار الذى تمنوا منذ زمان قريب مثل ما أُوتى قارون من السعة والغنى يقولون : نَعجب ممَّا حدث لقارون ، ونندم على تمنينا مثل ما أُوتى حقًّا إن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لِكرَامَة تقتضى البسط ، ويضيقه على من يشاء ، لا لهوان يقتضى التضييق ، فهو الحكيم فى قضائه وقدره ،لولا أَن منَّ الله علينا فلم يعطنا ما تمنينا لخسف بنا كقارون ؛ لأَن المال يغوينا كما أَغواه ، ويدمرنا كما دمره ، نعجب مرة أُخرى من هذا العقاب ، ونندم على تمنينا مثل يساره الذى فتنه ، إنه لا يفلح الكافرون بنعم الله ، المؤثرون لدنياهم على دينهم ، المكذبون برسلهم ووعْدِهِمْ ووعيدهم ، فهم الخاسرون النادمون .

(تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(عُلُوًّا) : استكبارًا . (وَالْعَاقِبَةُ) : الخاتمة الطيبة .

التفسير

٨٣ - (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

هذه الجنة العظيمة الموجودة فى الآخرة بنعيمها الدائم ، وجمالها الباسم نجعلها ثوابا للمؤمنين الصالحين الذين لايريدون بنعم الله عليهم تعالياً على الناس ، وسلطاناً فوقهم ،

ولايريدون بها عدواناً وظلما يفسد عليهم حياتهم ، والعاقبة المحمودة فى شرع الله وحكمه للذين يتقون غضبه فيطيعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، ويسالمون عباده .

جاء فى حديث صحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « يـأيها الناس إنى أوحى إلىّ أن تواضعوا ، ألا فتواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد ، وكونوا عباد الله إخواناً » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه ، ومن أحب أن يتجمل بين الناس بنعم الله عليه فلا يعد هذا تعالياً ولا كبرًا ، فقد صح أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى أُحب أن يكون ردائى حسناً ونعلى حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد .

٨٤ - (مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ الَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

من جاء يوم الحساب والجزاء بالخصلة الحسنة عقيدة أوعملا ، فله جزاء خير منها ، حيث يضاعف الله ثوابها بحسب ما فيها من حسن النية والأداء ، ومن جاء بالخصلة السيئة عقيدة أو عملا فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا بمثل ما كانوا يعملونه من السيئات دون زيادة عليها ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ »[1]

وإنما قال : من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة ، ولم يقل : من عمل الحسنة ومن عمل السيئة للدلالة على أن استحقاق الثواب أو العقاب مستفاد من الخاتمة التى يجئ بها الإنسان لربه ، لا من أول العمل ، فمن أمضى عمره فى الكفر ثم أسلم وحسن عمله فقد جاء ربهُ بالحسنة وله ثوابه ، ومن أمضى عمره فى الإيمان والعمل الصالح ثم كفر ، فقد جاء ربه بالسيئة وله عقابه . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧

(إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) : أوجب عليك تبليغه ، والعمل به .

(لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أى : لراجعك إلى مكان عظيم تعودته – وهو مكة – : من العادة ، أو إلى مكان تعود إليه بعد الخروج منه : من العوْدِ ، وهو مكة أيضاً ، وذلك فى يوم فتحها سنة ثمان من الهجرة ، وفيه معان أخرى ، وما ذكرناه أولاها .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : بعد عن الحق واضح ، من (أبانَ) : اللازم ، بمعنى اتضح .

(وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَابُ) : وما كنت تتوقع أن ينزل عليك القرآن .

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ) : أى معيناً لهم بإجابتهم إلى طلبهم .

(وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ) : ولا يمنعك الكافرون عن العمل بآيات الله بعد وقت إنزالها إليك .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) : أى كل شىء فانٍ إلا ذاته - تعالى - فالوجه مجاز عن الذات ، وللكلام بقية فى التفسير .

التفسير

٨٥ - (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

ذكر الله - تعالى - فى الآيات السابقة قصة موسى وقومه مع قارون وبغيه واستطالته عليهم ، وهلاكه ،ونصره أهل الحق عليه ، وجاء بهذه الآية مشيرة إلى قصة سيدنا محمد وأصحابه مع قومهم ، واستطالتهم عليهم ، وإخراجهم إياهم من بلدهم ، ومبشرة بإعزازه ﷺ ورده والمؤمنين المهاجرين إلى مكة وفتحهم إياها غالبين منصورين ، ووسط بين القصتين ما هو مرتبط بهما من شئون الآخرة ، للانتقال من قصة إلى أخرى ، قال مُقاتل : خرج النبى ﷺ من الغار ليلا مهاجرًا إلى المدينة فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها ، فقال له جبريل : إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » : أى مكة ظاهرًا عليها ، قال ابن عباس : نزلت بالجحفة فليست مكية ولا مدنية .

وتفسير المعاد بمكة قول الأكثرين ، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم ، وقال القُتَبى : معاد الرجل بلده ؛ لأنه ينصرف منه ثم يعود إليه .

وفى المعاد أقوال أُخرى ، وما ذكرناه أولى منها بالقبول ، لما ذكرناه من الربط بين القصتين .

ومعنى الآية : إن الله الذى فرض عليك - أيها الرسول - تبليغ القرآن والعمل به ، لراجعك ظافرًا إلى مكة بلدتك التى تعودتها وقد أخرجوك منها فلن يكون خروجك منها أبدياً ، قل لقومك : ربى أعلم بمحمد الذى جاء بالهدى من عنده فينصره ويرده إلى بلده وينشر هداه ، وأعلم بمن هو فى ضلال واضح من قومه فيخذله ، ويذله .

٨٦ – (وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ) :

هذه الآية مقررة لما جاء فى الآية السابقة ، من الوعد بإعادته إلى مكة التى أخرجوه منها ومؤيدة لموقفه السلبى من دعوتهم إياه إلى العودة إلى ملة الشرك التى نشأُوا عليها ، وتثبيت له عليه ، قال مقاتل : دعا كفار مكة رسول الله ﷺ إلى دين آبائه فذكَّره الله – تعالى – نعمه ، ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه .

والواقع أن الرسول الأمين لا يتصور منه أن يكون ظهيرا للكافرين فى دينهم ، فهو بعيد عنه منذ صباه ، وكان يعبد الله على ما بقى من دين إبراهيم ، فالغرض من نهى الرسول عن أن يكون ظهيراً لهم ، إنما هو إقناطهم من استجابته إليهم مهما اشتدت قسوتهم ، ببيان أن الأمر صدر له بمخالفتهم ممن أنزل عليه الكتاب رحمة به وبهم ، فلا تطمعوا فى مخالفته ما كلفه به ربه .

ومعنى الآية : وما كنت تتوقع أن يختارك الله رسولاً ، وأن يُنزل عليك كتاباً تبلغه قومك ومَنْ وراءهم ، ولكن رحمة من ربك بعباده وبك ، اختارك وأنزل عليك الكتاب فلا تكونن فى يوم من الأيام معيناً للكافرين – وأنت من الله بهذه المكانة والمنزلة المقتضية لنصرك عليهم – بل دم على ما أنت عليه من مخالفتهم والاستمرار فى دعوتهم إلى الحق مهما لقيت فى سبيله فلسوف يعيدك ربك إلى بلدك مظفراً منصورا .

٨٧ – (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

ولا يمنعنك قومك بإعراضهم وعدائهم عن تبليغ آيات الله بعد إذ أنزلها الله إليك ، فلا تتأثر لمخالفتهم وصدهم الناس عنك ، وإيذائهم لك ولأتباعك ، فإن الله سيعلى كلمتك ، ويؤيد دينك ، ويظهر ما أرسلت به على سائر الأديان ، ودم على ما أنت عليه من الدعوة إلى إلى ربك وحده لاشريك له ، ولا تكونن من زمرة المشركين بعد أن دعوك إليهم ، فهم أهل الضلال ، وأنت رسول الهدى ، وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

والغرض من الآية : إقناط الكافرين من استجابة الرسول إليهم ، كما تقدم فى الآية السابقة ، فإنه لا يتصور منه أن يكون من المشركين ، وقد اختاره رب العالمين . وكيف يتصور منه ذلك وهو الذى كان يقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته أو أهلك دونه » .

٨٨ ـ(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية كالآيتين قبلها لمزيد تثبيت النبى ﷺ فيما هو مقيم عليه من الدعوة إلى توحيد الله ، وقطع أطماع المشركين فى استجابته إلى ما أرادوه منذ فجر الدعوة من تركه دعوة التوحيد وعودته إلى الوثنية دين الآباء والأجداد مهما بالغوا فى إيذائه فاقرأ ماكتبناه عليهما قبلها ، لتدرك مبلغ ترابطها .

ومعنى هذه الآية : والزم توحيد ربك الذى أنت مقيم على عبادته ولا تعبد مع الله إلٰهاً آخر . فإنه لا معبود بحق سواه ، كل شىء مصيره إلى الهلاك إلا ذاته ـ سبحانه ـ له القضاء النافذ فى خلقه عابدين ومعبودين وسواهم ، وإليه ترجعون للحساب والجزاء ، فكيف يُعبد سواه وقضاؤه نافذ فى خلقه بالهلاك والفناء ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شىء ماخلا الله باطل » .

واعلم أن المراد من الشىء : الموجود ، ولهذا استدل بالآية على إطلاق لفظ شىء على الله ـ تعالى ـ وكأنه قيل : كل موجود فى أى وقت هالك إلا ذاته فلا يلحقه هلاك ـ سبحانه وتعالى ـ. وقال مجاهد والثورى فى قوله تعالى : « كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » أى : إلَّا ما أُريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه ، والمقصود من هذا الرأى أن الأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله ـ تعالى ـ تبقى ببقاء ثوابها ، حيث يجدها صاحبها نعيما مقيماً فى جنة الرحمن الرحيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية - قيل : هى آخر ما نزل بمكة - فيكون ذكر شيء عن المنافقين فيها من باب الإخبار بالمغيبات عن مجتمع المدينة ، وذكر الجلال فى وجه اتصالها بما قبلها : أن الله - تعالى - أخبر فى سورة القصص التى قبلها بما كان من فرعون واستعلائه على قومه ، وجعلهم شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب فافتتحت سورة العنكبوت بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار ، وعذبوهم بعذاب دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل تسلية لهم بذكر ما وقع بمن قبلهم . وحثاً لهم على الصبر وتحمل الأذى ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » .

كما أن من المناسبة أيضاً ما أشارت إليه الآيات فى خاتمة سورة القصص . من هجرة النبى ﷺ فى قوله - تعالى - : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ » على بعض الأقوال ، وما أشارت إليه سورة العنكبوت من هجرة المؤمنين فى قوله - تعالى - : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوآ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ » هذا ، وقد ختمت سورة القصص بما يفيد هلاك جميع المخلوقات ، ورجوعهم إلى الله ، فكان من جميل النسق أن تبدأ سورة العنكبوت بعدها بتوجيه المؤمنين إلى الصبر على ما يتعرضون له من الأذى ، وما يُفْتنون به من بلاء المشركين ؛ ليكون لهم جزاءُ الصابرين ، وعقبى المتقين .

خلاصة هذه السورة

بدأت السورة بذكر ما يتعرض له المؤمنون من الفتن ، وما يواجههم من عنت وإرهاق وتعرض لفتن كثيرة جرت عليها سنة من قبلهم من المؤمنين حيث أُوذوا من الكافرين برسلهم ليتبين الذين صدقوا ، ويُعلَم الكاذبون ، ثم حثت الآيات على التمسك بالعقيدة ، والعمل الصالح استعداداً للقاء الله ، ونبهت إلى جميل الجزاء ، وحسن الثواب لمن أقام على عمل الصالحات التى من جملتها الإحسان إلى الوالدين ، واصطناع المعروف معهما مهما كان شأنهما ، وحذرت من ضعف الإيمان ضعفاً تهزه الحوادث ، ويذهب به التعرض للأذى والفتن .

ثم انتقلت الآيات إلى طرف من قصص نوح وإبراهيم ولوط مع قومهم فى بيان يطول ويقصر ، حتى انتهت إلى قصة شعيب - عليه السلام - مع أهل مدين .

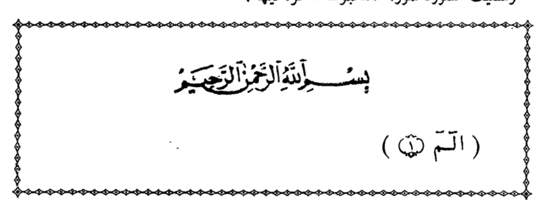
ثم انتقلت من هذا إلى تهوين أمر المشركين والكافرين مهما بلغت قواهم ، وظهر أمرهم ، فإن هذا كله لا يلبث أن يزول ، وينتهى بهم إلى أشد العقاب ، ولا تنفعهم معبوداتهم ؛ فهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتا « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

ثم دعت الآيات إلى حسن المجادلة مع أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة حسبما يرشد إلى ذلك الكتاب الكريم الذى أُنزل على النبي الأُمى الذى لم تسبق له قراءة ولم يجلس إلى معلم : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » : وتأكدت هذه المعانى كلها بآيات بعد ذلك ترد شبههم ، وتنعى عليهم استعجالهم العذاب الذى لن يفوتهم إن كان مقدرًا عليهم ، وسيغشاهم من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم إذا حان حينه ، وجاء أوانه .

ثم اتجهت الآيات فى ختام السورة إلى دعوة المؤمنين إلى النّاس عزتهم وقوتهم فى أرض الله الواسعة ، فستكون لهم العاقبة الحسنى فى الدار الآخرة التى هى الحيوان لو كانوا يعقلون .

وبمقدار ما عابت الآيات أحوال الكافرين ، وأنكرت عليهم تكذيبهم للحق حين جاءهم ، بشرت المجاهدين فى الله بالهداية إلى سبل الرشاد فى الدارين : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

وسميت السورة سورة العنكبوت لذكره فيها .



بدئت هذه السورة بسرد حروف من حروف المعجم كغيرها من كثير من السور ، والكلام فى ذلك مثل الكلام فى نظائره من هذه الفواتح الكريمة السابقة ، فارجع إلى مثله فى أوائل القرآن إن شئت .

ومما تجدر الإشارة إليه أن السور التى بدئت بسرد حروف من المعجم أتبعت هذا الابتداء بالحديث عن القرآن الكريم بصور مختلفة ، وأساليب متعددة ، إلا ثلاث سور هذه إحداها

وسورة الروم ، وسورة مريم ، وهذا يدلنا على أن فى هذا الكتاب العزيز أسرارا لا يزال العقل البشرى فى عجز عن إدراكها ، ومعرفة الحكمة فيها ومنها ، مهما تكلف فى توجيه ذلك المتكلفون .

على أن ذكر هذه الحروف فى مفتتح هذه السور وغيرها أسلوب من أساليب إثارة الانتباه والتيقظ لما يذكر بعدها من أغراض وأهداف .

(أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(أَحَسِبَ) : أظنَّ ، والحسبان كالظن : ترجيح أحد النقيضين على الآخر .

(لَا يُفْتَنُونَ) : لا يختبرون ولا يمتحنون ، من قولهم : فَتَن الذهب ، إذا أدخله النار ليختبر جودته .

(صَدَقُوا) : آمنوا عن عقيدة وإخلاص .

(الْكَاذِبِينَ) : المنافقين فى إيمانهم .

(أَن يَسْبِقُونَا) : أن يفوتونا ويعجزونا فلا يلاقوا جزاء أعمالهم .

التفسير

٢ - (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) :

(الْحُسْبَانُ) : ترجيح أحد النقيضين على الآخر كالظن ، بخلاف الشك ، فهو : التردد بينهما ، وبخلاف العلم ، فهو : القطع بأحدهما ، ولا يتعلق الحسبان بمعانى المفردات ، ولكن بمضامين الجُمل ، ولذلك يقتضى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، أو ما يسد مسدَّهما كما هنا .

والمعنى : أَظَنَّ الناس تركهم غير مفتونين لمجرد إيمانهم أو نطقهم بالشهادتين دون أن يتعرضوا للفتن فى دينهم ، والامتحان بمشاق التكاليف من المهاجرة والمجاهدة ، والصبر على فعل الطاعات ، واحتمال أنواع المصائب فى الأموال والأنفس والثمرات ؛ ليتميز المخلص فى إيمانه من المنافق ، والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه . فيلاقى كل واحد جزاءه بما يقتضيه عمله كما فى قوله – تعالى – : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »(١)

رُوى أنها نزلت فى أُناس من المسلمين الأوائل كان المشركون من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار ابن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمه سمية ، وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، فنزلت هذه الآيات تسلية لهم وإعلاماً بأن هذه هى سنة الله فى خلقه اختبارا لهم وتمحيصاً .

وهذه الآيات وإن نزلت فى هؤلاء فهى باقية فى أُمة محمد ﷺ أبد الدهر .

وقيل : نزلت فى « مهجع » مولى عمر بن الخطاب أول من قُتِل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله فجزع عليه أبواه ، وامرأته ، فقال النبى ﷺ : « سيد الشهداء مهجع ، وأول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأُمة » .

٣ – (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) :

هذه الآية تتصل بالآية قبلها ؛ توضح أن ابتلاء الأُمم سنة قديمة مبنية على الحِكم البالغة ، جارية بين الأُمم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها .

والمعنى : ولقد اختبرنا الأُمم قبلكم ، وابتليناهم بأنواع من البلاء ، وضروب من الفتن والمحن أشد مما أصابكم ، فمنهم من صبروا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ومنهم من ارتدَّ عن دينه ، وهؤلاء وأولئك معلومون لله مجزيون على أعمالهم ، كما قال سبحانه : « فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ... » أى : فوالله ليعلمن الله الصادقين الذين

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

صبروا لهذا الامتحان يعلمهم علماً تنجيزياً ، بعد أن علمهم قبل أن يكونوا . وليعلمن الكاذبين فى إيمانهم كذلك ، فيجزى كلاً جزاءه الذى يناسب حاله [١] .

٤ ــ (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

هذه الآية انتقال من إنكار حسبان الناس أن يتركوا لمجرد الإيمان دون أن يفتنوا . إلى إنكار حسبان الذين يعملون السيئات أن لا نجازيهم على سيئاتهم وهو أبطل من الحسبان الأول ، وقد عمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصى . وتكون الآية على هذا فى المشركين وعصاة المؤمنين ، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه ــ تعالى ــ ولم تطمع نفوسهم فى ذلك لكن نُزِّل جريهم على غير موجب العلم بالجزاء من الغفلة وإصرارهم على المعاصى منزلة من لم يتيقن الجزاء .

والمفهوم من السياق ، ومن سبب النزول : أن الحسبان الأول كان من المؤمنين ، وهذا الحسبان من الكافرين ، وبهذا أخذ ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ . فقد روى أنه قال : يريد ــ سبحانه ــ بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ، والأسود ، والعاص ابن هشام ، وشيبة وعتبة ابنى ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبى معيط . وحنظلة ابن وائل ، وأنظارهم من صناديد قريش .

وهذا لا يمنع أن الآية تعم جميع من يعمل السيئات ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والمعنى الإجمالى للآية : أظنَّ الذين يرتكبون السيئات من الكفر والمعاصى أن يفوتونا ، ويهربوا من حسابنا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوىء أعمالهم ، لقد ظنوا كذبا ، وحسبوا باطلا ، وحكموا فاسدًا (سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) : أى بئس الحكم الذى يحكمونه هذا الحكم .

---

(١) روى عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « قد كان من كان قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظم من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه . »

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

المفردات :

(يَرْجُواْ لِقَآءَ اللهِ) : يتوقع ملاقاة جزائه ، أو يخاف.

(أَجَلَ اللهِ) : الوقت الذى حدده وعينه . (جَاهَدَ) : غالب نفسه وقهرها على الطاعة.

التفسير

٥ - (مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

المعنى : من كان يتوقع ملاقاة جزائه ثواباً أو عقاباً ، فليبادر إلى ما يحقق رجاءه . ويؤمن خوفه ، وليختر من الأعمال ما يؤدى إلى حسن الثواب ، وجميل العاقبة ، وليحذر ما يسوقه إلى سوء العاقبة كقوله - تعالى - : « فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »[1] .

وقوله - تعالى - : (فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ) معناه : فإن الوقت الذى حدده وعينه لذلك لآت وواقع لا محالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، فليستعد لذلك ويقدم له . وقيل : المقصود برجائه لقاء الله : أمَله بلقائه فى الجنة .

ومعنى : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : هو السميع لأقوال عباده فى جهرهم وسرهم ، وخلواتهم وجلواتهم ، العليم بجميع أحوالهم وشئونهم لا يغيب عنه من ذلك شىء ، ولا يخفى عليه أمر.

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف.

ويجازى كلا بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر تصديقاً لقوله - تعالى - : « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » (١)

٦ - (وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

ذكرت الآيات السابقة ابتلاء الله عباده واختبارهم ليمحص الذين آمنوا فيجزل لهم الثواب ، ويعظم الأجر ، ثم جاءت هذه الآية تحفز هممهم إلى الاستزادة من عمل الصالحات ، وكثرة الطاعات ، فقال - تعالى - ما معناه : ومن جاهد نفسه بالصبر على طاعة الله ، أو دفع وساوس الشيطان فإنما يجاهد لنفسه لعود منفعته إليها ، إن الله لغنى عن العالمين فلا حاجة له إلى طاعتهم ، وإنما أمرهم - سبحانه - بها ليثابوا عليها بموجب رحمته وحكمته .

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) : لنسقطنّ عنهم عقاب سيئاتهم .

(أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أحسن جزاء أعمالهم ، بأن تجازى الحسنة الواحدة بعشر أمثالها فأكثر ، أما الجزاء الحسن فإنه يكون بمجازاة الحسنة بحسنة مثلها فقط .

التفسير

٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

قررت الآية السابقة أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، وهذه الآية تؤكد هذا المعنى وتزيد

(١) الآية ٣١ من سورة النجم .

عليه أن فضل الله - تعالى - لا يقف عند الجزاء بالمثل ، بل فضله أعظم ، ورحمته أوسع وأشمل ، فهى تشير إلى أن الله - تعالى - يسقط عذاب الكافرين بإسلامهم ، ويتجاوز عن عقاب العصاة لفعل الطاعات ، ثم تتجلى رحمة الله وواسع فضله بقوله - تعالى :

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : لنثيبنهم أحسن ثواب أعمالهم ، فنجازى على الحسنة بعشر أمثالها وأكثر . ولا نقف على الجزاء الحسن فنثيب على الحسنة حسنة فقط .

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ) : أمرناه ، و (وصَّى) يجرى مجرى الأمر معنًى ، فكأنه قيل : وأمرنا الإنسان ، ويستعمل فيما كان فى المأمور به نفع عائد على المأمور وغيره .

(جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى) : بالغا فى حملك على الشرك .

(مَرْجِعُكُمْ) : عودتكم بالموت .

(أُنَبِّئُكُمْ) : أخبركم .

التفسير

٨ - (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

جاءت هذه الآية فى معرض الحديث عن الإيمان وعمل الصالحات تُوجِّه إلى منهل من

أثرى مناهل الرحمة وهو بر الوالدين والإحسان إليهما، وقد نزلت هذه الآية فى سعد ابن أبى وقاص – رضى الله عنه – بعد إسلامه حيث حلفت أمه «حمنة[1]» بنت أبى سفيان ألّا تنتقل من الضّح[2] إلى الظل، ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد، فلبثت ثلاثة أيام، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه فنزلت هذه الآية، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها بالإحسان.

وقيل: نزلت فى عباس بن أبى ربيعة وقد فعلت أمه مثل هذا الفعل، وسواء أكان نزولها فى هذا أم ذاك، فهى لجميع الأمة، لأن الإحسان إلى الوالدين مطلوب من كل مسلم.

ومعنى الآية: أمرنا الإنسان بإيتاء والديه، وإيلائهما كل فعل ذى حسْن يرضيهما ويوفر راحتهما، ويحقق البر بهما ما دام فى كل هذا طاعة الله، فإن ذلك يحقق له الثواب وعظيم الأجر، ويعود على الوالدين بالخير والراحة والإحسان، فإن ابتغى الوالدان أو أحدهما من الولد شيئًا فيه معصية، أو جاهداه وحملاه حملًا على أن يشرك بالله ما ليس له علم بألوهيته وإنما يعلم بطلانه، فلا يطعهما؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولكن مع التلطف فى معاملتهما، والصبر على ابتلائه بهما؛ فإنه لا يصبر على بلاء الله إلّا صديق.

وقوله – تعالى –: (إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ): معناه؛ إلىّ وحدى نهايتكم جميعًا منْ آمن منكم ومن أشرك، ومن برَّ والديه ومن عقهما، فأكشف لكم عن هذا كله، وأجازى كلاًّ بعمله، الخير بالخير، والشر بالشر.

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾)

---

(١) جاء فى الإصابة ج ٤ ص ١٦٠ رقم ٣١٨٧ فى ترجمة سعد بن أبى وقاص أن اسم أمه: حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبى سفيان بن حرب.

(٢) الضح: نور الشمس

المفردات :

(فِى الصَّالِحِينَ) : الصلاح ؛ ضد الفساد ، وهو أبلغ صفات المؤمنين .

التفسير

٩ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ) :

الدخول فى الصالحين مطلب من أجلِّ المطالب التى تستشرف إليها نفوس خاصة المؤمنين بله الأنبياء والمرسلين ، وهذا سليمان - عليه السلام - مع ما أعطاه الله من الرسالة والملك ، وتسخير كثير من الأكوان يقول : « وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »[١] .

والمعنى : والذين آمنوا بالله ، وصدقوا بوحدانيته ، وأخلصوا فى عبادته بعمل الصالحات والإكثار من الطاعات ، لندخلنهم ونحشرنهم يوم القيامة فى زمرة الراسخين فى الصلاح الذى هو منتهى درجات المؤمنين ، وغاية ما امتدح الله به الأنبياء والمرسلين ، قال - تعالى - فى شأن إبراهيم - عليه السلام - : « وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »[٢] وقيل : المراد لندخلنهم مدخل الصالحين وهو الجنة ، والمؤدَّى واحد فى كلا المعنيين .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾)

(١) جزء الآية ١٩ من سورة النمل .

(٢) جزء الآية ١٢٢ من سورة النحل .

المفردات :

(أُوذِيَ فِي اللَّهِ) : عُذِّب من الكافرين بسبب إسلامه .

(فِتْنَةَ النَّاسِ) : ما يلحقه من أذاهم .

(كَعَذَابِ اللَّهِ) : مثل عذاب الله الذى ينتظر العصاة فى الآخرة .

(نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : فتح وغنيمة .

(إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) : كنَّا مشايعين ومناصرين لكم فى الدين .

(الْمُنَافِقِينَ) : الذين يظهرون الإسلام ويخفون الشرك .

التفسير

١٠ – (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ . . .) الآية .

نزلت هذه الآية فى ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم ، وكانوا يكتمون ذلك على المسلمين ، وقيل : إنها نزلت فى المنافقين .

والمعنى : ومن بين المسلمين ناس ضعاف الإيمان يقولون : آمنا بألسنتهم ، ولم يتغلغل الإيمان فى قلوبهم ، ولم يتعمق فى ضمائرهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار والمشركين بسبب إيمانهم خافوا هذا الأذى ولم يصبروا عليه ، ووافقوهم على شركهم وأظهروا لهم ولاءهم معادلين هذا العذاب لعذاب الله – تعالى – فى الآخرة ، ومُنزليه منزلته فى الشدة والهول .

(وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : وحصل للمؤمنين فتح أو غنيمة رجعوا إلى المؤمنين ، وأكدوا لهم إيمانهم بقولهم : إنا كنا مشايعين لكم فى الدين ، مناصرين لكم فى بلائكم ، فأشركونا معكم فى الغنيمة ، ويردّ القرآن عليهم هذا الادعاء الكاذب بقوله :

(أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) : أى أن الله – تعالى – أعلم بما فى صدور العالمين من أنفسهم به ، فلا يخفى ذلك على الله ، بل لا يخفى على المتفرسين الذين ينظرون بنور الله – تعالى – أحوالهم من رقة الإيمان أو من النفاق .

١١ – (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) :

تؤكد هذه الآية ختام الآية السابقة ، فتقرر على سبيل التأكيد أن الله – تعالى – يعلم

الذين آمنوا عن صدق وإخلاص ويعلم المنافقين أو الضعفاء الإيمان الذين يعبدون الله على حرف فيهز إيمانهم الأذى ، وتزلزله فتن الكفار ، وليختبرنَّ إيمانهم بالأمن والخوف والسراء والضراء فيجازى كل واحد بعمله .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا) : اسلكوا طريقنا التى نسلكها فى الدين .

(خَطَايَاكُمْ) : أوزاركم وسيئاتكم .

(أَثْقَالَهُمْ) : خطاياهم وذنوبهم الفادحة .

(يَفْتَرُونَ) : يختلقون فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل .

التفسير

١٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

نزلت هذه الآية فى كفار قريش على ما أخرجه جماعة عن مجاهد ، قالوا لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم شىء التزمنا حمله ، وهو بيان لأسلوب آخر من أساليب الكفار فى استمالة المسلمين ، وإغرائهم بالكفر ، وحملهم بهذا الأسلوب على الإشراك بعد حملهم عليه بالإيذاء والوعيد والتهديد .

والمعنى : وقال الكفار من مشركى مكة للمسلمين الذين اتبعوا دعوة الرسول ﷺ : اتبعوا سبيلنا ، واسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى ديننا ، ولْنحمل عنكم ذنوبكم وآثامكم إن صح أن هناك بعثًا وجزاءً ، أو إن كان فى اتباعكم لنا خطيئة يؤاخذ عليها عند البعث ــ كما تقولون ــ وقد ردَّ الله عليهم بقوله ــ تعالى ــ : (وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَىْءٍ) : أى : وما أولئك المشركون بحاملين من شىءٍ من خطاياهم التى التزموا أن يحملوها لهم إن وافقوهم ، وإن هؤلاء المشركين لكاذبون فى دعواهم القدرة على حمل خطايا المسلمين ؛ لأنهم يقولون مالا يقدرون عليه ، ولا يملكون أداءه .

١٣ ــ (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

هذه الآية استمرار فى تسفيه المشركين ، ودرء أباطيلهم ببيان مايستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا .

والمعنى : وليحملنَّ هؤلاء المشركون فى الآخرة آثامهم الفادحة ، وأوزارهم الثقيلة (وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) أى : وأوزارا وآثاماً أُخَر مع أثقال أنفسهم وهى أثقال من تسببوا فى إضلالهم وحملهم على الكفر والمعاصى من غير أن ينقص ذلك من أثقال من أضلوهم شيئا أصلا .

والتعبير بالأثقال عن الخطايا والذنوب للإيذان بخطورتها كأنها عبءٌ ثقيل تنوءُ به الكواهل ، وهذا كما فى قوله ــ تعالى ــ : «لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ»[1] ــ وكما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أن النبى ﷺ قال : « أيُّما داع دعا إلى هدى فاتُّبع عليه وعُمِل به فله مثل أُجور الذين اتبعوه ، ولاينقص ذلك من أُجورهم شيئا ، وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع عليها وعُمِل بها ، فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ، ولا ينقُصُ ذلك من أوزارهم شيئا » .

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة النحل .

(وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : المقصود من سؤالهم : تبكيتُهم وتوبيخهم ، لا الاستعلام عن افترائِهم ، فالله به عليم.

والمعنى : وليسألن الله - تعالى- هؤلاءِ المشركين يوم القيامة سؤال تقريع وتبكيت عما كانوا يفترونه ، ويختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التى من جملتها أكاذيبهم هذه .

وقد اتضح مما تقدم أن هذه السورة الكريمة قد صنفت الناس إلى مؤمنين خُلَّص صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا فى أعمالهم ، وإلى مؤمنين ضعاف الإيمان يعبدون الله على حرف فيهتز إيمانهم أمام الفتن ، ويتزلزل لما يلحقهم من إيذاء ، وإلى مشركين ممعنين فى الكفر والضلال والإضلال .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(فَلَبِثَ فِيهِمْ) : مكث فى دعوتهم إلى التوحيد .

(الطُّوفَانُ) : الماءُ الكثير الغالب الذى يغشى كل شيء ، وقد يطلق على كل مايحيط ويطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والمطر والظلام .

(وَجَعَلْنَاهَا) : أى السفينة ، أو الحادثة والقصة .

(آيَةً) : عظة وعبرة .

التفسير

١٤ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

هذا شروع فى عرض شيء من قصص الأنبياء تسلية للرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه ببيان ماعاناه الأنبياء - عليهم السلام - قبله مع أممهم، إثر بيان افتتان بعض المؤمنين بأذية الكفار والمشركين، وتأكيدا للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا لمجرد أن يقولوا : آمنا . وتثبيتا للرسول ﷺ على ماكان عليه من الصبر على أذى الكفار والمشركين .

ومعنى الآية : ولقد أرسلنا رسولنا نوحا -عليه السلام- إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله،وعبادته والتزام طاعته ، فلبث فيهم ومكث يدعوهم إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلم يجد منهم إلا إصرارا على الكفر ، وإمعانا فى العناد ، ومعارضة لدعوته حتى استحقوا العقاب ، وعرضوا أنفسهم لانتقام الله منهم ، فأخذهم الطوفان ، وغمرهم الماء من كل ناحية وجانب عقب تمام المدة التى مكث يدعوهم فيها (وَهُمْ ظَالِمُونَ) أى : مستمرون على الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح - عليه السلام - والتعبير بقوله : (إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) بدلاً من أن يقال : إلا خمسين سنة للبعد عن التكرار .

١٥ - (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) :

أى : فأنجينا نوحا من الغرق ، وأنجينا معه جماعة المؤمنين الذين صحبوه فى السفينة التى صنعها بوحى من الله وتحت حفظه ورعايته ، وكان الذين معه من أولاده وأتباعه ثمانين ، وقيل : ثمان وسبعون ، نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح سام ، وحام ، ويافث ،ونساؤهم ، وقيل فى عددهم غير ذلك ، والله أعلم بحقيقة عددهم ، ويكفى فى قلتهم أنهم ركاب سفينة واحدة مع ماحمله فيها من كل حيوان زوجين اثنين .

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم – وصححه – عن ابن عباس قال : بعث الله – تعالى – نوحا – عليه السلام – وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله – تعالى – وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وذكروا أن مدة الطوفان ستة أشهر آخرها يوم عاشوراء ، وجاء في بعض الآثار أنه – عليه السلام – أطول الأنبياء عمرا ، أخرج ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح – عليهما السلام – فقال : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتا له بابان ، فقال وسط الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر [1] .

ومعنى قوله – تعالى – : (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) : جعلنا السفينة عظة وعبرة حيث بقيت على الجودى زمانا طويلا ، قيل : إلى بعثة الرسول ﷺ وقيل : جعلنا الحادثة والقصة المفهومة من السياق عظة وعبرة للعالمين ، لاشتهارها فيما بينهم .

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(اتَّقُوهُ) : اتقوا أن تشركوا به شيئا .

---

(١) قال : بمعنى نام نصف النهار ، ومصدره : القيل والقائلة والقيلولة .

(أَوْثَانًا) : أصناما مصنوعة ، جمع وثن ، قال أبو عبيدة : الصنم : مايتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ، والوثن : مايتخذ من جص أو حجارة .

(إِفْكًا) : كذبا . (فَابْتَغُوا) : فاطلبوا .

التفسير

١٦ - (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى : واذكر إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله وحده واتقوه فلا تشركوا به أحدًا ذلكم الذى آمركم به وأدعوكم إليه من العبادة والتوحيد، ومايتبع ذلك من عمل الطاعات خير لكم من كل خير، ومما أنتم عليه من الوثنية التى لاخير فيها (إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) : الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر، أو كنتم من أهل العلم بوجه من الوجوه تبين لكم أن الخير كله فى عبادة الله وحده لاشريك له .

١٧ - (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية استمرار فى تسفيههم وبيان بطلان دينهم ، وكونه شرا فى نفسه بعد بيان أنه شر بالنسبة للدين الحق .

والمعنى : إنكم بعبادتكم هذه ماتعبدون من دون الله إلا أصناما هى فى نفسها تماثيل مصنوعة ليس لها وصف غير ذلك ، وماتَخلقونَ إلَّا كذبا حين تسمونها آلهة ، وتدَّعون أنها شفعاؤكم عند الله ، أو معنى : (تَخْلُقُونَ إِفْكًا) : أى تعملون هذه الأصنام ، وتنحتونها بأيديكم لتكون العاقبة من خلقها الإفك والكذب . إن هذه الأصنام التى تتخذونها وتعبدونها من دون الله لاتقدر على نفعكم ، ولا تملك لكم رزقا أىَّ رزقٍ: قليلا أو كثيرا ؛ فابتغوا عند الله واطلبوا الرزق الكامل كله؛ فإن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين ، واعبدوه وحده واشكروا له على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته وشكره تستكثروا من خيره وفضله .

وقوله - تعالى - : (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . معناه : إلى الله - وحده لا إلى غيره - تعودون وترجعون بالموت والبعث . فافعلوا ماتؤمرون به واستعدوا للقائه .

(وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾)

المفـردات :

(الْمُبِينُ) : الواضح البيِّن فى نفسه ، أو المبين لغيره الموضح له .

التفسـير

١٨ - (وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

هذه الآية والآيات التى بعدها إلى قوله - تعالى - : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) يحتمل أن تكون من كلام سيدنا إبراهيم لقومه منتظمة فى سياق القصة . وأن تكون وقعت معترضة فى شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش . بين أول قصة إبراهيم وآخرها قصد بها التنفيس عنه ﷺ ومسلاة له بأن أباه إبراهيم - عليه السلام - كان مبتلًى من قومه بمثل ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، وسواءٌ أكان هذا أم ذاك فإن المعنى : وإن تكذبونى فى دعوتى فلن تضرونى بتكذيبكم ؛ فما على الرسول إلا البلاغ والتبعة فى التكذيب على المكذبين لاعلى رسلهم ، وقد كذبت الأمم قبلكم أنبياءهم مثل : شيث وإدريس وإبراهيم ونوح وغيرهم فما ضروهم ، وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وأما الرسل فقد تم أمرهم ، واستكملوا واجبهم فى التبليغ الواضح الذى لايبقى معه شك .

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا) : المراد من الرؤية هنا : العلم ، أى : أو لم يعلموا علماً يشبه المشاهدة بالبصر .

(يُبْدِئُ الْخَلْقَ) : يوجده ابتداءً من مادة ومن غير مادة على غير مثال .

(يُعِيدُهُ) : يحييه بعد موته وتحلل أجزائه ، بل وتلاشيها .

التفسير

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

كلام مستأنف مسوق للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دلائله . والمعنى : أغفلوا وجهلوا ، ولم يعلموا - علما تؤكده الرؤية وتؤيده المشاهدة - كيفية خلق الله - تعالى - الخلق ابتداءً من مادة ومن غير مادة على غير مثال سابق . وكل ما فى هذا الكون يوحى بذلك ، ويفرض العلم به . ولا ينكره إلا مكابر معاند . ثم الله - سبحانه وتعالى - يعيد خلقه بالبعث بعد فنائه ؛ لأن القادر على خلقه ابتداءً لا يعجزه إعادة خلقه كما تقرر هذا فى قوله : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ »[1].

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم

(إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) : أى ؛ إن أمر إعادة الخلق بعد الفناء يسير على الله سهل لا يفتقر إلى شىء أصلا ، وإنما يقول الله – تعالى – له : (كُن فَيَكُونُ).

ويجوز أن يكون المشار إليه ما ذكر من البدء والإعادة.

٢٠ – (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أنكرت الآيات السابقة على الخلق غفلتهم وتعطيلهم العقل بعدم تدبرهم فى قدرة الله – تعالى – الواضحة فى بدء الخلق تدبرا يصل بهم إلى اليقين بقدرته على البعث وإعادة الخلق ، وهذه الآية تأمرهم بالسير فى الأرض لينظروا فيها كيفية بدء الخلق الدالة على قدرته – تعالى – على النشأة الآخرة .

والأمر فى قوله – تعالى – : (قُلْ سِيرُوا) يحتمل أن يكون لسيدنا محمد إذا كانت هذه الآيات معترضة فى قصة إبراهيم – عليه السلام – لتسلية الرسول ، وأن يكون لسيدنا إبراهيم – عليه السلام – إذا كانت هذه الآية والتى قبلها وبعدها متصلة بقصته .

والمعنى : قل – يا أيها الرسول – لقومك سيروا فى الأرض ، وتقلبوا فى جوانبها ومناكبها ، فانظروا كيف بدأ الله الخلق على أطوار مختلفة ، وطبائع متغيرة .

(ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ) : أى ؛ ثم الله الذى أنشأ النشأة الأولى قادر أن يعيد خلقهم فى الآخرة مثل النشأة الأولى التى شاهدوها ، وعاينوا آثارها وأطوارها .

والتعبير عن الإعادة بالنشأة الآخرة يشعر بأن النشأتين شأن واحد من شئون الله – تعالى – من حيث إن كلا منهما إخراج من العدم إلى الوجود ، لافرق بينهما إلا بالأولية والآخرية .

وإظهار اسم الله فى قوله – تعالى – : (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) مع إضماره فى قوله – سبحانه – : (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة ، كما أن ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق فى أقطارها

ومما ينبغى الالتفات إليه فى هذه القضية مايتعاقب من النبات والثمار فيكون فى كل سنة على مثل ماكان عليه فى السنة السابقة ، فهذا مما يستدل به على صحة البعث كما أشار إليه العلامة أبو السعود ، ونزيد عليه : أن الأمر كذلك فى مختلف أنواع الحيوانات والطيور والأسماك .

وقوله – تعالى – : (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :تذييل لتحقيق ماقبله ، لأن من علم قدرة الله – تعالى – على جميع الأشياء لايتصور أن يعجز عن إعادة الخلائق بعد فنائهم .

(يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(تُقْلَبُونَ) : تردُّون وترجعون .

(بِمُعْجِزِين) : بفائتين ولا هاربين من عذاب الله .

(وَلِيٍّ) : معين وناصر يمنعكم من العذاب .

التفسير

٢١ – (يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) .

جملة مستأنفة لبيان مابعد النشأة الآخرة .

والمعنى : يعذب بعد النشأة الأخرى من يشاء بعدله ، وهم المنكرون المصرون على الكفر . (وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ) بفضله ، وهم المؤمنون المصدقون ، وتقديم التعذيب على الرحمة لأن المقام مقام ترهيب وتخويف .

وقوله – تعالى – : (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) : معناه ؛ إلى الله وحده تردون وترجعون ، فتلاقون جزاءكم من التعذيب والرحمة .

٢٢ – (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ وَمَالَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :

هذه الآية من تمام الوعيد فى الآية السابقة .

والمعنى : وما أنتم – أيها الخلق – على كثرتكم ، واختلاف أحوالكم بفائتين من حساب ربكم ، ولا هاربين من جزائه بالتوارى فى الأرض الفسيحة ، أو الهبوط فى مهاويها . أو التخفى فى مناكبها ، ولا بالتحصن بالسماء التى هى أمنع من الأرض إذا استطعتم الصعود إليها .

وقيل : وما أنتم بمعجزين من فى الأرض ولامن فى السماء .

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) : أى ؛ ليس لكم من الله من أحد يحرسكم مما يصيبكم من بلاء أرضى أو سماوى ، ولانصير ينصركم ويدفع عنكم عذابه وبلاءه إذا شاء .

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾)

المفـردات :

(يَئِسُوا) : انقطع رجاؤهم وقنطوا . (رَحْمَتِى) : جنتى

التفسير

٢٣ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَـٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والذين كفروا بآيات الله التكوينية والتنزيلية وكفروا بلقاء الله الذى تنطق به آياته : أولئك يائسون من رحمته ، قانطون من دخول جنته يوم القيامة ، وأولئك لهم عذاب موجع مؤلم فى الآخرة .

وفى تكرار الإشارة والإسناد وتنكير العذاب ، ووصفه بالإيلام ، وفى وصفهم باليأس من رحمته - تعالى - مع شدة حاجتهم إليها يومئذ - فى ذلك كله - ما يؤذن بسوء حالهم وفظاعته يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾)

التفسير

٢٤- (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

يتشوف السامع إلى السؤال عن حال قوم إبراهيم - عليه السلام- بعد أن دعاهم إلى توحيد الله وعبادته وأمرهم بالسير فى الأرض والتدبر فى أحوالها وتقلباتها ليعلموا كيفية قدرة الله - تعالى -على بدء خلقه فيعلموا من هذه المشاهدات والأحوال كيفية قدرته على إعادة الخلق بالبعث بعد الفناء ، فتكون هذه الآية هى الإجابة على هذا السؤال ، ويتسق بذلك السياق فى أحكم نظام وأدقه .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم على دعوته إياهم إلّا أن قالوا : اقتلوه بأداة قتل أو حرقوه بنار لتستريحوا منه ، وتستأصلوا شره، ثم انتهوا من هذا الترديد إلى إحراقه ، فجمعوا أحطابا كثيرة، ثم أضرَمُوا فيها النار حتى ارتفع لهيبها ، وحَمِيَتْ جذوتها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم – عليه السلام – فأوثقوه وقذفوا به فيها، فأمرها الله أن تكون بردا وسلاماً على إبراهيم ففقدت خاصيتها، ثم خرج منها سالماً مُعافىً بفضل الله بعدما مكث فيها

(إنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن فى ذلك الإنجاء من النار بعد أن بذلوا فيها جهودهم وماتبع ذلك من بردها على إبراهيم . وخيبة أملهم فيها – إن فى ذلك – لمعجزات عجيبة ، وآيات واضحة الدلالة لقوم مستعدين لتقبل الهداية . واستجابة الدعوة ؛ فأما غيرهم فهم غافلون عن اجتلائها . محرومون من الفوز بمغانمها . وقد جاء فى مواضع أخرى من القرآن أمر الإحراق فقط دون القتل كما فى هذه الآية ؛ ولعل الآيات الأخرى اكتفت بما انتهوا إليه . وقد جاءت قصته – عليه السلام– فى أكثر من سورة من القرآن مع تفاصيل أخرى

(وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(أَوْثَاناً) : أصناماً تعبدونها من دون الله .

(مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) : سبباً فى تواصلكم واجتماعكم على عبادتها

(مَأْوَاكُمْ) : منزلكم الذى تأوون إليه خالدين فيه أبدًا .

التفسير

٢٥ - (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

لم يخرج إبراهيم من النار خائر العزم ، واهن القوة وإنما خرج فى مثل حاله الأولى من القوة والتصميم ماضياً فى تسفيه قومه ، وتسخيف عقولهم حيث قال لهم : إنما اتخذتم من دون الله آلهة زائفة ، وأصناماً من صنعكم لانفع لها ، ولا غناء فيها جمعتكم على عبادتها ، وأوجدت بينكم المودة والتآلف لنصرتها ولن يكون لكم ذلك إلا فى الدنيا ، ثم يوم القيامة تنقلب الأمور ، ويتبدل التواد تباغضا ، والتلاطف تلاعنا حيث يكفر بكم أتباعكم ، ويلعن كل فريق منكم الفريق الآخر .

كما فى قوله - تعالى -: « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ[1] »

ومأواكم ومسكنكم الذى تأوون إليه ولا ترجعون منه النار ، وما لكم من دون الله من ناصرين يخلصونكم من عذابها كما خلص الله إبراهيم من ناركم ، وعصمه ونصره من سوء صنيعكم

* (فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۘ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾)

(١) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

المفردات :

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) : أى آمن بإبراهيم وأسلم له قياده .

(وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى) : أى وقال ذلك إبراهيم – عليه السلام – والهجرة : مفارقة بلد إلى بلد آخر ، فإن كانت قربة إلى الله فهى الهجرة الشرعية، وهى اسم من : هاجر مُهَاجرةً كما فى القاموس .

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ) : أى منَّ الله – سبحانه– على إبراهيم بالذرية ، فوهب له إسحٰق ابنًا ويعقوب ابن ابن .

(وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) : فلم يبعث الله نبيًا بعده إلَّا من صلبه ، ولم تنزل الكتب السماوية إلَّا عليهم .

التفسير

٢٦ – (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : إن لوطًا صدق إبراهيم – عليه السلام – فى جميع مقالاته . أو صدق بنبوته حين ادّعاها . لا أنه صدقه فيما دعا إليه من التوحيد ؛ فإن لوطًا – عليه السلام – كان مومنًا بالله .

ولوط : ابن أخى إبراهيم – عليه السلام – وهو المشهور عند جمهور المفسرين ، وذكر بعضهم أنه ابن أُخته ، نقل ذلك الآلوسى فى تفسيره .

وهو أول من آمن بإبراهيم ، وأجاب دعوته إلى الحق ، وكان إبراهيم يسكن كُوثى – بالضم – قرية بالعراق[1] وهى من سواد الكوفة ، هاجر منها إلى حرَّان ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارح ، وامرأته سارة ،ثم أُرسل لوط فى حياة إبراهيم– عليه السلام – إلى أَهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم فى الأَعراف وهود والنمل .

---

(١) انظر القاموس .

وإبراهيم – عليه السلام – أول من هاجر من أرض الكفر كما قال الكلبي ، وقال مقاتل : هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ، وقال حين ترك قومه مهاجرًا : (إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى) أى : إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها ، أو من أجل ربى ، حيث لا أُمنَعُ عبادته وإظهار دينه ، وقيل المعنى : إنِّى مهاجر منْ خالفنى من قومى متقربًا إلى ربى (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أى : الغالب على أمره الذى يمنعنى من أعدائى ، ولا يأمر – لعظيم حكمته – إلَّا بما فيه الخير والمصلحة .

٢٧ – (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : لما فارق قومه أقر الله عينه بولد صالح نبي وهو إسحٰق ، وبولَد ولَدٍ وهو يعقوب ولد إسحق ، وذلك فى حياة جده ، وكانت هذه الهبة العظيمة التى لا يُقَادرُ قدرها حين أيس من الذرية من امرأته سارة وهى عجوز عقيم .

ولم يذكر هنا إسماعيل – عليه السلام – لأنه ولد له قبل ذلك من أم شابة ولم تكن عجوزًا عقيمًا ، وهى هاجر ، أما إسحاق فولد بعده من سارة العجوز العقيم ، ومن ورائه يعقوب ابن إسحاق .

وقال الزمخشرى : إن إسماعيل ذكر ضمنًا وتلويحًا بقوله : (وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) ولم يصرح به لشهرة أمره ، وعلو قدره . هذا مع أن المخاطب به نبينا ﷺ وهو من أولاده وأعلم به : اهـ .

وقد خص الله – سبحانه – إبراهيم – عليه السلام – بقوله : (وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَاب) تكريماً له ، حيث إنه لم يبعث بعده نبي قط إلَّا من صلبه وقد أُوتوا الكتب المنزلة ، وهى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وآتاه – سبحانه – أجره فى الدنيا بانتماء أهل الملل إليه ، والثناء عليه ، وإعطاء الولد والذرية الطيبة ، واستمرار النبوة فيهم ، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وسعة الرزق (وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) : أى جمع الله له

بين سعادة الدنيا الموصولة، وسعادة الآخرة، فوفقه إلى القيام بجميع ما أمر به من عمل دائب لمحاربة الشرك، وإعلاء التوحيد، والطاعة له وحده، كما قال - تعالى -: « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى »[1].

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

(لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) : أى ؛ الفعلة الشنيعة، وهى إتيان الرجال .

(وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ) : أى الطريق، وكلتاهما تذكر وتؤنث .

(وَتَأْتُونَ فى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) : أى تقترفون فى ناديكم الأمر القبيح الذى ينكره الدين والخلق .

التفسير

٢٨ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

أى ؛ واذكر - أيها الرسول - لوطًا إذ قال لقومه أهل سدوم موبخًا ومحذرًا لهم من الأعمال القبيحة التى أقبلوا عليها وتمسكوا بها، قال لهم : إنكم لتأتون الفعلة البالغة الغاية

(١) سورة النجم ، الآية : ٣٧

فى الفحش ، وهى إتيانَ الرجال شهوة من دون النساء . وقرأ الجمهور : أئنكم على الاستفهام الإنكارى .

وقوله - تعالى - : (مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) حكاية لقول لوط - عليه السلام - مسوق لتقرير كمال قبحها ، ببيان إجماع جميع العالمين قبلهم على التحاشى عنها لكونها مما تشمئز منه النفوس ، وتنفر من شناعته الطباع ، وأنها جريمة نكراء ، ابتدعوها ولم يُسبقوا إليها من أحد من بنى الإنسان .

٢٩ - (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ . .) الآية .

أى : إنكم لتنكحون الرجال انتهاكًا لحرمات الله ، وتقطعون الطريق بسبب حمل الغرباء والمارة على تلك الفعلة الشنعاء ، وإتيانهم كرهًا ، أو : وتقطعون طريق النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث ، أو : وتقفون فى طريق الناس تقتلونهم ، وتأخذون أموالهم وقد بلغ بهم التمادى فى اقتراف كل قبيح أنهم كانوا يأتون فى مجتمعهم كل أنواع المنكر ، من اللواط وغيره .

أخرج أحمد والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، والطبرانى والبيهقى فى الشعب وغيرهم عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله - تعالى - : (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) فقال : « كانوا يجلسون فى الطريق فيقذفون أبناء السبيل ، ويسخرون منهم » وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادة وابن زيد : هو إتيان الرجال فى مجالسهم يرى بعضهم بعضًا .

ولما وقفهم لوط - عليه السلام - على قبائحهم أجابوه بما حكاه الله عنهم بقوله : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) : أى فيما تعدنا به من نزول العذاب ، تكذيبًا له وسخرية به فيما نهاهم عنه وأوعدهم بنزوله .

وهذا الجواب صدر عنهم فى المرة الأولى من مراتب تبليغ لوط - عليه السلام - وما فى سورة الأعراف المذكور فى قوله - تعالى - : « وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ »[1] ، وما فى سورة النمل المذكور فى قوله - تعالى - : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ . . . »[2] ، فقد صدر بعد هذه المرة ، وذلك لأن

(١) من الآية : ٨٢ .
(٢) من الآية : ٥٦

قولهم : (ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) من باب التكذيب والسخرية ، وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات ، أما قولهم : (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ) ، وقولهم : (أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ) فمن باب العقاب والانتقام ، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرر الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومَزيد تألمهم مع قدرتهم على التشفى منهم بما يؤذيهم ، ويُبعدهم عن ديارهم . اهـ : بتصرف من الآلوسى .

وقيل : إن ما هنا جواب قومه – عليه السلام – له إذ نصحهم ، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا فى أمره .

٣٠ – (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) :

لجأ نبى الله لوط إلى ربه متضرعًا ، ملتمسًا أن ينزل العذاب الموعود على هؤلاء المفسدين الذين فعلوا الفاحشة وتمسكوا بها وأصروا عليها ، واستعجلوا العذاب الذى أوعدهم به سخرية منه حينما دعاهم إلى ما فيه صلاح حالهم ، واستقامة أمرهم .

ووصفهم بالمفسدين مبالغة فى استحقاقهم استنزال العذاب بهم لأنهم فسَدوا وأفسَدوا .

(وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(بِالْبُشْرَى) : بالبشارة بالولد ونصرة لوط .

(هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ) : هى سدوم كما سبق .

(كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) : الباقين فى العذاب .

(سِيءَ بِهِمْ) : اعترته المساءة خوفًا عليهم من قومه .

(رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ) : أى عذابًا من السماء يزعجهم ، من : ارتجز ، أى : ارتجس ، واضطرب .

(آيَةً بَيِّنَةً) : هى آثار القرية الخربة التى تدل على قصتها العجيبة .

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار .

التفسير

٣١ - (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) :

لما استنصر لوط - عليه السلام - ربه على قومه بعث الله لنصرته ملائكة فمروا بإبراهيم - عليه السلام - فى هيئة أضياف كما تقدم فى سورة هود ، والحجر ، ولما أوجس منهم خيفة شرعوا يؤنسونه ، ويبشرونه بأنهم أرسلوا له بالبشارة بالولد والنافلة[1] من امرأته سارة ، وأخبروه بأنهم أرسلوا كذلك لإهلاك قوم لوط كما حكاه قوله - سبحانه - : (إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ) وهم أهل قرية سدوم لإصرارهم على الفاحشة ، وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى .

٣٢ - (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) :

---

(١) أى : ولد الولد ، والمراد بهما إسحاق وابنه يعقوب - عليهما السلام .

أى : قال لهم – على سبيل التفجع والتحزن – : أتهلكونها وفيها من هو برئ من الظلم ؟! فكان ردهم عليه بأنهم غير غافلين عن مكان لوط فيها وأتباعه من المؤمنين .

وقيل : يجوز أن يكون إبراهيم – عليه السلام – اعتقد عدم تناول إهلاك أهل القرية للوط – عليه السلام – لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقته عليه ، وحبه له .

وقوله – سبحانه – حكاية عنهم : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) يشعر بأنهم معنيون بلوط وأهله أتم عناية ؛ لتأكيد وعدهم بالتنجية بالقسم ، أما امرأته فلأنها كانت تمالىء قومها على كفرهم وبغيهم ، فكانت من الباقين فى العذاب وقد مر الكلام عن ذلك فى سورة النمل .

٣٣ – (وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ . . .) الآية .

بعد مفارقة الرسل لإبراهيم – عليه السلام – ساروا إلى لوط – عليه السلام – فى صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك اعترته المساءة والحيرة : وعجزت طاقته عن تدبير أمرهم . وعن الحيلة لإنجائهم ، وكان لايعلم أمرهم فى الساعة الراهنة التى رآهم فيها .

ولما شاهدوا فيه مخايل الضجر من جهتهم ، وعاينوا مايشير إلى أنه عاجز عن مدافعة قومه ، طمأنوه .

(وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) .

أى لا تخف من قومك علينا وعليك ولا تحزن بما نفعله بقومك ، ولن يصيبك وأهلك أذى إلَّا امرأتك فهى من الهالكين الباقين فى العذاب .

٣٤ – (إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِما كَانُوا يَفْسُقُونَ) :

بيان لما أشار إليه قوله – سبحانه – : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) من نزول العذاب على أهل قرية سدوم ، أكبر قرى قوم لوط ، وفيها بدأت الفاحشة كما قيل ، ولذا خصت بالذكر وقد استأصل العذاب أهلها وقطع دابرهم .

قال ابن كثير : إن جبريل – عليه السلام – اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابًا إلى يوم المعاد . اهـ

(بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) : أى بسبب فسقهم المعهود المستمر حل بهم عذاب الإبادة والاستئصال .

٣٥ - (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

أى : ولقد أهلك الله هذه القرية وترك منها آية واضحة تدل على ما فعله الله بهم لتكون عبرة وعظة لقوم يحكمون عقولهم ، ويستعملونها فى الاستبصار والانتفاع بما شاهدوه من كمال قدرة الله ، وقوة سلطانه .

وفى الآيات من الدلالة على ذم اللياطة وقبحها مالا يخفى ؛ فهى كبيرة بالإجماع ، وأشد حرمة من الزنى .

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

المفردات :

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى لا تحدثوا فيها الفساد بكفركم ، فإنه أصل كل فساد ، والعثُوُّ ، والعِثِيُّ : أشد الفساد .

(الرَّجْفَةُ) : الزلزلة الشديدة ، أو صيحة جبريل - عليه السلام - .

(فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) : أى باركين على الركب ميتين .

التفسير

٣٦ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ...) :

يخبر – سبحانه – عن عبده ونبيه شعيب أنه خاطب أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له ، وأن يخافوا يوم القيامة ، حيث قال لهم : (يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) : أى خافوا ما ينزل بكم فيه من فنون الأهوال والشدائد ، واعملوا اليوم الأعمال التى تؤمنكم غائلته وقسوته ، قال يونس النحوى وأبو عبيدة : الرجاءُ هنا بمعنى الخوف والخشية ، أى : اخشوا الآخرة التى فيها الجزاءُ على الأعمال .

ثم نهاهم – سبحانه – عن الْعُتُوِّ فى الأرض قاصدين الفساد ظلما وبغياً على أهلها ، وكانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس . مع كفرهم بالله ورسوله ، وذلك أشد الفساد وأبشعه ، فقال لهم : (وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) ولما لم يعد لتهديده أثر حيث استمروا مندفعين فى اقتراف آثامهم ، نزل بهم من العذاب ما حكاه الله بقوله :

٣٧ – (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) :

أى : أصابتهم زلزلة شديدة دمرت عليهم ديارهم وأرضهم ، وقيل : صاح بهم جبريل – عليه السلام – صيحة أحدثت الرجفة بسبب تحريكها للهواء ، فأصبحوا بسبب ذلك باركين على ركبهم ميتين[1]

(وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾)

(١) وقد مضت قصتهم مبسوطة فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء .

المفردات :

(مِن مَّسَاكِنِهِمْ) : بالأحقاف .

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) : أى الطريق الحق .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) : أى عقلاء ذوى بصائر ولكنها لم تنفعهم .

(وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) : أى فائتين ، بل أدركهم أمر الله ، أو : وما كانوا سابقين فى الكفر ، بل سبقتهم أمم كثيرة .

(حَاصِباً) : سحاباً أو ريحاً يحصبهم بالحجارة .

(الصَّيْحَةُ) : تَمَوُّجٌ شديد فى الهواء يحدث هزة عنيفة مهلكة .

(خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) : أى غيبناه فى جوفها ، يقال : خسف المكان خسْفاً ، من باب ضرب ، وخسوفًا : ذهب فى الأرض ، وخَسَفَ الله به الأرضَ ، أى : أدخله فيها وخرقها به .

التفسير

٣٨ ـ (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمالَهُمْ..)الآية :

أى : واذكر عادا إذ أرسلنا إليهم هودا فكذبوه فأهلكناهم ، وثمود إذ أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة أتم ظهور ما نَزل بهم فيما حدث بمساكنهم عند مروركم عليها فى أسفاركم ، وكانت العرب وبخاصة أهل مكة تعرف مساكنهم جيدًا ، وتمر عليها كثيرًا فى أسفارهم فيبصرونها ، ويشاهدون فى غدوهم ورواحهم آثار ماحل بها من دمار وهلاك ، وكانت عاد تسكن الأحقاف وهى قريبة من حضرموت باليمن ، وثمود تسكن الحجر قريباً من وادى القرى .

وقد زين الشيطان لعاد وثمود الكفر والعصيان بوسوسته وإغوائه ، فصرفهم بذلك عن الطريق السوى الموصل إلى الحق . (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) بواسطة الرسل ، فقد أوضحوا لهم السبيل ، فلا عذر لهم فى ضلالهم عنه ، ولاحجة لهم فى اختيار الغى والضلال »

أو : كانوا عقلاءَ ذوى بصائر يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالنظر والاستدلال لوضوح الأدلة وظهور البراهين ولكنهم أعرضوا ولم يعْتبروا ، قال الفراءُ : كانوا عقلاءَ ذوى بصائر يعرفون الحق ، ولكنهم أهملوه كفرًا وعنادًا وجحودًا ، وقال مجاهد : وكانوا مستبصرين فى الضلال .

٣٩ - (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وهَامَانَ ..) الآية :

أى : واذْكر - أيها الرسول - لهؤلاءِ المغترِّين بـأموالهم وسلطانهم مصرع قارون ، وفرعون ، وهامان .

وقارون[1] كان من قوم موسى - عليه السلام - وقُدِّم ذكره على فرعون وهامان ؛ لأن المقصود تسلية النبى ﷺ عما لقى من قومه لحسدهم له ، فقارون مع أنه كان من قوم موسى قد لقى منه موسى مالقى ، روى أنه كان يؤذيه فى كل وقت ويحسده وهو يداريه لقرابته .

أو قدِّم لأنه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه فى الظاهر وعلمه بالتوراة ، وكونه ذا قرابة من موسى - عليه السلام - أو : قدم لأن هلاكه قبل هلاكهما ، فتقديمه يكون على وفق الواقع ، وفرعون ملك مصر ، وهامان وزيره ، وكانا رأس الكفر بالله ورسوله تزعما قومهما فى الكفر بموسى ، وأنزلا ببنى إسرائيل أشد العذاب وأقساه .

(وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) :

أى : لما جاءهم موسى بالحجج الواضحة على نبوته ، ودعاهم إلى الإذعان واتباع الحق استكبروا فى الأرض عن الإيمان بالله والطاعة له ، وهذا يشعر بقلة عقولهم وضعف إدراكهم لأن مَنْ فى الأرض محياهم ومماتهم لاينبغى لهم أن يستكبروا على القوى القاهر الذى يملك السموات والأرض وما فيهما كما أنهم لا يفوتون أمر الله - تعالى - بل يدركهم وينزل بهم الدمار والهلاك ، فلا يفلت منهم أحد .

---

(١) تقدم الحديث عنه فى سورة القصص .

وقال أبو حيان : المعنى : وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر بل قد سبقهم إلى الكفر قرون كثيرة ، فأهلكناهم ، أى : تلك عادة الأمم مع رسلهم - عليهم السلام - .

٤٠- (فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ . وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

أى : فكل واحد من المذكورين الذين كذبوا رسلهم ، عاقبناه بما اقترف من ظلم وفساد ، وكان أخذ كل منهم وفق ما أراده الله ، فمنهم من أهلكناه بالريح العاصفة التى تحمل الحصباء - وهى صغار الحصى - وهم قوم لوط .

وقال ابن عطية : يشبه أن يدخل عاد فى ذلك ؛ لأن ما أهلكوا به من الريح كانت شديدة وهى لا تخلو من الحصب بأمور مؤذية .

ومنهم من أخذته الصيحة المدوية المهلكة ، كمدين وثمود ومنهم من خسفنا به الأرض فغارت به ، وغيبته فى جوفها كقارون .

ومنهم من أغرقناه فى اليم كفرعون ، وهامان وجنوده أجمعين (وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ) : بأن يعاقبهم من غير جرم ؛ فإن ذلك محال من جهته -تعالى- وليس من سنته - عز وجل - (وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : أى إنما فعل بهم ذلك جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم حيث استمروا على ما يوجب عقابهم من الكفر والمعاصى باختيارهم .

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(الْعَنكَبُوتِ) : دويبة تنسج نسجاً رقيقاً واهياً ، والمراد : النوع الذى يبنى بيته فى الهواء ، وتطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ، والغالب فى استعمالها التأنيث ، وجمعها : عناكب وعناكيب .

(أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) : أشدها ضعفاً وعجزًا عن دفع أى أذى .

التفسـير

٤١ ـ (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ..)الآية :

هذا مثل ضربه الله ـ سبحانه ـ للمشركين الذين اتخذوا آلهة من دون الله يرجون نصرها ورزقها ويتمسكون فى الشدائد بها مع ما هى عليه من عجز وعدم غناء ، ضربه ـ جل وعلا ـ ليبين به أن شأنهم فى الضعف والوهن ، والاعتماد على غير معتمد كشأن العنكبوت اتخذت مما نسجته بيتا تحتمى به من البرد والحر وغيرهما ، وبيتها من أوهى البيوت وأبعدها عن الصلاحية للاحتماء .

فهم وهى مشتركان فى اتخاذ ماهو فى غاية الضعف فى بابه ، بل إن آلهتهم أوهن من بيت العنكبوت إذ له حقيقة وانتفاع فى الجملة ، أماهى فلا .

وقيل : المعنى ؛ مثل المشرك الذى عبد الوثن بالقياس إلى الموحِّد الذى عبد الله ـ تعالى ـ كمثل عنكبوت اتخذت بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من آجر وحجر أو نحته من صخر ، وكما أن أضعف البيوت إذا استوعبناها بيتاً بيتاً بيت الْعَنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقرأناها ديناً ديناً عبادة الأوثان ، وهو وجه حسن ذكره الزمخشرى فى الآية ونقله الآلوسى . وقوله ـ تعالى ـ : (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ)وقع تذييلا لتقرير الغرض من التشبيه وهو أن أمر دينهم بلغ الغاية التى لاغاية بعدها فى الضعف والوهن ، حيث لايرى شىءٌ يدانى بيت العنكبوت فى ذلك ، ثم أكد ذلك بتجهيلهم بقوله ـ سبحانه ـ : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كانوا يعلمون شيئًا من العلم لما اتخذوا هذه الآلهةَ أولياءَ من دون الله ، ولعلموا أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم لاوزن له ، ولابقاء ،

وقيل : لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت لما عبدوها ، وقد جهّلهم ـ سبحانه ـ فى الاتخاذ ، ثم زادهم ـ جل وعلا ـ تجهيلا بأنهم لا يعلمون هذا الجهل الذى لايخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

٤٢ ـ (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : قل لهم ـ أيها الرسول ـ : إن الله لاتخفى عليه خافية ، فهو يعلم أى شىء يدعونه إلٰها من دونه فقد بلغ من الحقارة حدًا لاغاية له ، وإنهم لفى جهل بيّن حيث تركوا عبادة الله ـ تعالى ـ وعبدوا غيره مع أنه شىءٌ لا يعبأُ به .

ويجوز أن يكون المعنى أن الله يعلم أنكم لستم[1] تدعون من دون الله شيئاً ، لأن ما تدعونه لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئاً .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أى الغالب الذى لا شريك له (الْحَكِيمُ) فى ترك المعاجلة بالعقوبة ، وهو تجهيل لهم وتقريع حيث عبدوا ـ من فرط الغباوة ـ جمادا لاعلم له ولاقدرة وهو بالإضافة إلى العزيز القاهر القادر على كل شىء الحكيم البالغ فى العلم ، وإتقان العمل مالا غاية وراءه ـ فهو بالنسبة إلى العزيز الحكيم ـ كالمعدوم البحت ، وإن من هذا شأنه ـ جل وعلا ـ من الغلبة والحكمة قادر على مجازاتهم .

٤٣ ـ (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَالِمُونَ) :

هذا المثل والأمثال الكثيرة التى ذكرها القرآن فى سوره يضربها ـ سبحانه ـ للناس تقريباً لِفَهم ما ضُربت له ، وإدراك معناه ، وإظهارًا للمعانى المستورة وتوضيحاً ، وكان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، فلهذا قال ـ سبحانه ـ : (وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَالِمُونَ) : أى لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا الراسخون فى العلم المتدبرون للأشياء على ماينبغى ، روى محيي السنة فى مسنده عن جابر أن النبى ﷺ تلا هذه الآية (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ) ... الآية ، فقال : « العالِم : من عقل عن الله ـ تعالى ـ فعمل بطاعته واجتنب سخطه »

---

(١) على أن (ما) نافية ؛ أى : ما يدعون من دونه شيئا ؛ لأن الآلهة لحقارتها ليست شيئا موجودا .

(خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : أى بالعدل والقِسط ، أو بحكمته وقدرته المنزهة عن العبث .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً) : أى علامة ودلالة .

(اتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) : أمر للرسول بتلاوة القرآن وبرواية قراءته وإبلاغه للناس .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) : أدِّها فى أوقاتها وبأركانها وشروطها .

(تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ) : أى تنهى عن القبيح السيء الذى ينكره الشرع والعقل .

التفسير

٤٤ - (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى : خلقها محقًّا بخلقها مراعياً للحكم والمنافع المنزهة عن العبث حيث تتعلق بهما شئون عباده ، ويستدل بما فيهما من آيات بينات ، ودلائل واضحات على كمال قدرته - تعالى - وبديع صنعته ، ويشير إلى ذلك قوله - سبحانه - : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) أى : لآية دالة على أنه - تعالى - المنفرد بالخلق والتدبير والألوهية ، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أن الهداية والإرشاد لجميع المخلوقين ، لأنهم المنتفعون بذلك .

ويصح أن يكون المراد من المؤمنين : الذين يريدون الإيمان .

٤٥ - (ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) :

أمرٌ للرسول ﷺ بقراءة القرآن والمداومة عليها تقرباً إلى الله - تعالى - بتلاوته وتذكُّرًا لما فى تضاعِيفه من المعانى، وتذكيرًا للناس وحملا لهم على قراءته والعمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق. (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ) الخطاب للنبى ﷺ وأمته، وإقامة الصلاة : أداؤُها فى وقتها بأركانها وجميع شروطها، ويراد بها الصلاة المكتوبة المؤداة بالجماعة، وهى الصلوات الخمس التى تكفر ما بينها من الذنوب كما قال - عليه الصلاة والسلام -: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنِه شىءٌ ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىءٌ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا) خرَّجه الترمذى من حديث أبى هريرة، وقال فيه : حديث حسن صحيح.

ولما كان أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصلاة منتظماً لأمر الأُمة بها علَّل بقوله : (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ) :كأنه قيل : وصلِّ بهم لأن الصلاة تنهاهم عن الفحشاءِ والمنكر، أى : أنها سبب للانتهاءِ عنهما، وذلك لتضمنها صنوف العبادة، والوقوف بين يدى الله فى غاية الخضوع والتعظيم، كأنها تقول لمن يأْتى بها : لا تفعل الفحشاءَ والمنكر ولا تعص ربًّا هو أهل لما أتيت به من مناجاة له، وإقبال عليه. وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه - عز وجل - بما تكون به كالمتناقض فى أفعاله. ا هـ : بتصرف من الآلوسى.

ولا شك أن المصلى الصادق فى مناجاته ينتهى بصلاته عن المعاصى صغيرها وكبيرها، وينعم برعاية الله ويفوز برضاه حيث خشع لها قلبه، ورغبت فيها نفسه، وظهرت على جوارحه هيبتها، حتى إذا قاربه الفتور أظلته صلاة أخرى يترجع فيها إلى أفضل حاله.

وإذا كنا نرى كثيراً من المرتكبين للفحشاءِ والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك فهذا ليس ناشئًا عن الصلاة، بل عن غفلة المصلى عن حقوق الصلاة، فمن كانت صلاته دائرة حول الإجزاءِ لا خشوع فيها ولا تفكُّر ولا فضائل، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان فى طريقه معاص تبعده من الله - تعالى - تركته يتمادى فى بعده، بمعنى أنها لا تقربه

إلى الله ، حيث لم تنهه عنها ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن مسعود وابن عباس وهو : « فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله – تعالى – فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلّا بعدًا » .

وقيل لابن مسعود : إن فلانًا كثير الصلاة ، فقال : (إنها لا تنفع إلّا من أطاعها ، وطاعة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وكأنّه أراد بالصلاة التى تطاع وتنهى عن ذلك الصلاةَ الخاشعة المقبولة ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن عن عمران بن حصين قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله – تعالى – : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » بمعنى : أنها لم تؤت ثمرتها ، كما فى الصلاة التى تُؤدى مع الغفلة التامة ، والإخلال بما يليق بها ، وهذه الصلاة تُلفُّ كما يُلفُّ الثوب الخَلَق ويُرمى بها وجه صاحبها فتقول له : ضَيعك الله كما ضيعتنى ، كما جاء فى السنة .

وبالجملة ، فإن الصلاة تنهى من واظب عليها ، وأقبل بقلبه فيها على ربه ، فإنها تنتهى بصاحبها إلى صلاح الحال وحسن المآل ، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد وابن حبان والبيهقى عن أبى هريرة – رضى الله تعالى عنه – قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلانًا يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه ماتقول » .

(وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) : أى والصلاة أكبر من سائر الطاعات فى أثرها وثمرتها ؛ لأن ما فيها من ذكر الله هو العمدة فى الأمر بالحسنات والنهى عن السيئات ، ويشير إلى ذلك قوله – تعالى – : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ » بمعنى : امشوا إلى الخطبة والصلاة .

وقيل : ولذكر الْعبْدِ الله – تعالى – أكبر من سائر أعماله ، فهو تعميم بعد تخصيص .

أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن أبى الدرداء قال : ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها

إلى مليككم ، وأسماها فى درجاتكم ، وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم ، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم ؟ قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟ قال : ذكره -تعالى - وروى عن جماعة من السلف مايقتضيه ، أخرجه أحمد فى الزهد ، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملًا أنجى له من عذاب الله - تعالى - من ذكره -تعالى- قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع ؛ لأن الله -تعالى - يقول : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) ، وقال أبو حيان : (يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) من الخير والشر ، فيجازيكم بحسبه ، ففيه وعد ووعيد ، وحث على مراقبة الله - جل وعلا - .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٤٤٣٧ — ١٩٨٥ — ٢٥٠٠٤

